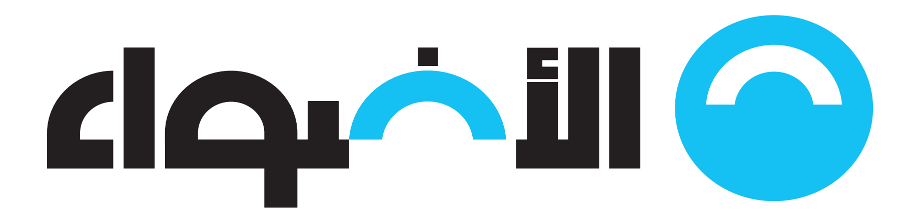


اللغة العربية

الصف 1 الثانوى

قصة أبو الفوارس «عنترة»

2023 - 2024

الفهرس

التعريف بالمؤلف

▪ هو الأستاذ (محمد فريد أبو حديد)، ولد بالقاهرة سنة ١٨٩٣م، وتخرج فى المعلمين سنة ١٩١٤م، واشتغل بالتدريس، واهتم بالأدب العربى والتاريخ، وتدرج فى مناصب الدولة حتى أصبح وكيلًا لوزارة المعارف، وتوفى بالقاهرة فى عام ١٩٧٦م بعد أن ترك للمكتبة العربية تراثًا أدبيًّا ضخمًا، مثل روايات: (المهلهل - الملك الضليل - زنوبيا - عنترة - فتح العرب لمصر - صلاح الدين الأيوبى)، وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٥م.

موضوع القصة

▪ تدور أحداث هذه القصة حول حياة الفارس العربى الشاعر الجاهلى: (عنترة بن شداد العبسى)، وتصور كفاحه وجهاده فى الحفاظ على كرامته فى المجتمع وتضحياته فى سبيل الحصول على حريته.

▪ كما تصور جانبًا من جوانب البيئة العربية (الجزيرة العربية) فى العصر الجاهلى وما فيه من عادات وتقاليد ونظم اجتماعية، فهى قصة تاريخية، اتخذ الكاتب فيها حب عنترة لعبلة محورًا لإبراز هذه الجوانب فى إطار أدبى، تمتزج فيه الحقيقة بالخيال، بأسلوب شائق جذاب.

أهداف القصة

تهدف القصة إلى:

أولًا: تصوير الإيجابيات التالية:

١ - أن الحرية لا توهب، بل لا بد من النضالِ والكفاحِ فى سبيلِ الحصول عليها.

٢ - أنه يجب أن ينال الشخص فى المجتمع المكانة التى تتناسب مع إمكاناته وقدراته.

٣ - الاستهانة بالمخاطر فى سبيل تحقيق الغاية.

٤ - الحب الطاهر يسمو بالنفوس، ويدفعها إلى تذليل الصعاب.

٥ - بيان أهمية التاريخ فى إنتاج أدب إنسانى رفيع.

٦ - تمجيد البطولة، والاهتمام بالبطولات؛ للاقتداء بها.

٧ - تدريب الشباب على الفروسية والدفاع عن النفس والأهل والوطن.

ثانيًا: تصوير بعض مفاسد العصر الجاهلى وسلبياته، مثل:

١ - قيام الحروب بين القبائل لأتفه الأسباب.

٢ - قيام الحروب والإغارة بين القبائل لسلب الأموال.

٣ - انتشار الرقِّ وإهانة الضعفاء واحتقار العبيد.

٤ - الاهتمام بالنظام الطبقىِّ.

٥ - أسر النساء والأطفال.

٦ - تمجيد القوة، ولو كانت غاشمة.

أهم أشخاص القصة

عنترة ابن شداد: فارس عبس وشاعرها، حارب من أجل حريته معتزًا بكرامته.

حبيبته وابنة عمه	«عبلة بنت مالك»، ابنة عم عنترة، موضع حبه، وحبها لعنترة حال دون التزوج من أحد.
أبــوه	«شداد بن قراد» سيد من سادات عبس، يعتز بتقاليد القبيلة، وهو ما جعله ينكر أبوته لعنترة فترة من الزمن.
أمــه	«زبيبة (تانا)»، أم عنترة حبشية الأصل، واسمها الأصلى «تانا بنت ميجو»، أخذت أسيرة وظلت فى رعاية «شداد».
أخوه من أمه	«شيبوب» أُسِر مع أمه، كان يلازم عنترة وينقل الأخبار له، مختلف عن عنترة فى نظرته للمرأة والحياة.
عـمُّـه	«مالك بن قراد» سيد من سادات عبس، أخو «شداد» ووالد «عبلة»، كان معارضًا لزواج عنترة من ابنته.
ابن عمه	«عمرو بن مالك» أخو عبلة، ظل حياته يكره «عنترة».
ملك قبيلته	«زهـير بن جذيمة»، ملـك عبس، يعرف لعنترة مكانته ويقـدر بطولته، ويعتز بـه.
غريمه	«عمارة بن زياد»، شاب من شباب عبس يفوقهم غنى وجمالًا وحسبًا، ورغب فى الزواج من «عبلة».
أخته من أبيــه	«مروة بنت شداد» فتاة مرحة خفيفة الظل، تعرف ما يُكنُّه «عنترة» من حب «عبلة».

أهم الأماكن التى وردت بالقصة فى الفصل الدراسى الأول

١	أرض الشربة والعلم السعدى	المكان الذى يقيم فيه بنو عبس وتقع فيه منازلهم.
٢	الحجاز	المنطقة الغربية من شبه الجزيرة العربية.
٣	الحبشة	إثيوبيا حاليًّا، وهى الموطن الأصلى لزبيبة قبل أن يتم خطفها.
٤	وادى الجواء	الوادى الذى كانت تقيم فيه قبيلة عبس.
٥	ثنية العقاب	الثنية التى كان شيبوب يراقب من ورائها قتال طيئ مع فرسان عبس.
٦	بئر الربابية	البئر التى نزل عندها فرسان طيئ الثلاثة الذين اختطفوا عبلة، حيث استطاع عنترة إنقاذها منهم والعودة بها إلى ديار عبس.



الفصل الأول
مُغَنِّى القافِلة

مجمل الأحداث

١- الفتى الحادى الأسمر. ٢- ملامح عبلة وزينتها.
٣- عبد عبلة. ٤- ذكريات أليمة. ٥- عبث ومرح.
٦- عبلة تأذن لعنترة فى إنشاد شعره. ٧- تأثير شعره على عبلة والفتيات.

تفصيل الأحداث

١ الفتى الحادى الأسمر:

كان الربيعُ يُغطّى جَوانِبَ الوَادِى بكسَاءٍ من الحَشيش والزَّهرِ، والسَّماءُ الصَّافيةُ لا تَشُوبُها سِوَى قِطع مُتفرقة مِنَ السَّحابِ الأبيض. وكانت الشَّمْسُ تميلُ نَحْو الغَربِ عِندَما اقْتَربت القافِلةُ مِنْ فم(١) الوادِى عِنْد ظلال أجَمةٍ(٢) وسَارَت الإبل تَخْطو خطوًا وئيدًا(٣) لا تَعْبأُ بشىءٍ مِمَّا حَوْلَها ولا يَسْتحِثُّها(٤) شَىءٌ من أمامها ولا مِنْ خلفِها، وكان يَرِنُّ فى الفَضَاءِ صَوتُ الحَادى(٥) يتغنَّى بأراجيزَ(٦) يَمْزِجُ فيها بين أنغام الحربِ وأنغام النسيب(٧)، فكانتِ الإبلُ تسيرُ رافعةً رُءوسَها نشيطةً كأنها تُصغى فى حماسةٍ إلى ذَلِكَ الغِناء المُطْرب.

وكَانَ الفتَى الحادِى يسيرُ فى صَدْرِ القافِلةِ آخِذًا بزِمَامِ بعيرٍ عليه هَودَجٌ قد طُرِحتْ عَليه ثيابٌ مُلوَّنةٌ مُخطَّطةٌ من حَريرٍ يَبْرُقُ فى ضَوءِ الشَّمسِ الغَاربَةِ، ويَخفق فى رِفْقٍ مَعَ النَّسيمِ الهادئ.

وكان الفتَى شَابًّا أسْمَرَ اللَّون يُشبه قَوامُهُ الرُّمْحَ الذى فى يمينِه؛ قامةٌ عاليةٌ ورأسٌ مَرفُوعٌ وصَدْرٌ فَسيحٌ، وقد شَمَّر عَنْ ذِراعَين مَفْتُولَتَيْنِ قويّتين، وهُو بَيْنَ حين وحِين يلتفت نَحْوَ الهَوْدَج فَتبرُقُ عَيْنَاهُ فى لَمحٍ خاطِفٍ، ثُمَّ لا يلبَثُ أن يتجهَ إلى أمامِه ناظرًا إلى فَم الوادِى مُستمرًا فى الغِناء بصوتِه الملىء، وكان النَّاظِرُ إلى وجْهه يَرَى أنْفَه الأقْنَى(٨) يَنْحَدِرُ إلَى فَمٍ قَوىٍّ فيه شَىْءٌ من الغِلَظِ، ويَلْمَحُ على جَبينه عبسَةً فيها شَىْءٌ يَنِمُّ(٩) عن حُزْنٍ كَمِينٍ(١٠)، ولمَّا بَلَغَ الرَّكبُ فَمَ الوَادِى أوْقَفَ الفَتى البعيرَ الَّذِى كان آخِذًا بزِمَامِه، فوقفَ القِطارُ كُلُّه لوُقوفِه، وأَسْرَعَ العَبيدُ والأتْباعُ الَّذِينَ كانوا يَسيرُون مُشَاةً فى آخرِ الرَّكْب

---

(١) فم: الجمع: أفمام. المراد: أوله.
(٢) 📖 أجمة: شجر كثير ملتف. الجمع: أجم وآجام.
(٣) 📖 وئيدًا: متمهلًا، بطيئًا. المضاد: سريعًا.
(٤) 📖 يستحثها: يدفعها إلى السير.
(٥) 📖 الحادى: المغنى للإبل. الجمع: حُداة، حادون.
(٦) أراجيز: المفرد: أرجوزة، وهى القطعة من الشعر.
(٧) 📖 النسيب: شعر الغزل.
(٨) 📖 الأقنى: المرتفع أعلاه مع انحناء، مؤنثه (قنواء) الجمع: قُنْو.
(٩) 📖 ينم: يدل.
(١٠) 📖 كمين: مستتر، دفين.

فَساقُوا الرَّواحِل[١١] الَّتى كانت تَحْمِلُ الزادَ والمَاءَ، وأَخذوا يضربُونها بعصيِّهم الغَليظةِ، حتى أناخُوهَا فى ناحية من جوانب الوادى. وأما الفتى فقد أناخ بعيره وأزاحَ السِّـتَارعَنِ الهَودَجِ ونَظَرإلى الفتَاةِ الَّتِى كانتْ فِيهِ وقال لها باسـمًا: منزلٌ كريمٌ يا عبلةُ. فَقَالَت الفتَاةُ باسمةً: شكرًا لكَ يَا عَنْتَرةُ.

ومَدَّ الفَتَى يَدَه لِيَسْنُدَها فاتَّكأتْ عَلَى سَاعِده القوى وَوَثَبتْ خفيفةً وهِىَ تَقُولُ:

لَقَدْ أجْهَدَكَ السَّيرُوأنتَ تَأبَى الرُّكُوبَ مُنْذُ اليَوْمِ. فَأَسْرَعَ عَنترةُ قائلًا: وكيف يُصيبنِى الجَهْدُ وأنا أحدُو[١٢] بَعيرَكِ يا سَيِّدتِى؟!

فَنَظَرت إليهِ، وكانَتْ عَينَاها تبتسمان، وسَارَتْ إلى ظِلِّ سِدْرةٍ[١٣] وهى تقولُ: لَمْ أَسْمَع شَيئًا يُشبِهُ حداءَكَ[١٤] يا عنتَرةُ، لقد أحْسَسْتُ كَأنَّ البَعيرَيَطربُ لإنشَادِكَ؛ فقال عنترةُ:

- إنَّه يطربُ ليُشارِكَنى يا سَيِّدَتى، فَهُو يعرفُ أَنِّى أُنْشِدُ فِى وَصْفِكِ أَنْتِ.

فَضَحِكت الفتاةُ ضحكةً تشـبهُ غِناءَ الطَّيرِ، وأسْرَعَ عَنتَرَةُ فَرَمى شَمْلَتَهُ[١٥] على الرَّمْلِ، ومدَّها لِتَجْلسَ عليْها، ثُم نَظَرَإليْها نَظرةً باسِمةً وأسْرَع خفيفًا يَثِبُ[١٦] فى خطواتِه لِكَىْ يَرى سَائِرَمَنْ فِى القافِلةِ مِنْ بناتٍ ونساءٍ ليُسَاعِدَ مَنْ تحتاجُ مِنهُنَّ إلى المسَاعَدَةِ. وسارَت الفتاةُ تَخْطِرُفى ظِلِّ السدْرِتنظرُإلَى الإبلِ وهِىَ تُنيخُ وأصْواتُها تُدوِّى.

تِلْك الفتاة هى عَبْلَةُ ابنةُ الفَارِسِ العَبْسِىِّ مَالِكِ بنِ قُرادٍ، وكـانَتْ آتيةً مِنْ عُرسِ ابنةِ خَالَتِها فى قبيلةِ هَوازِنَ، عائِدَةً إلى منَازِلِ قَومِهَا عَبْسٍ فى أرْضِ الشَّرِبَّةِ والعلمِ السعْدِىِّ.

٢ مـلامح عبلـة وزينتهـا:

كـانت عبلة تلْبَس ثوبًا مُعَصْفرًا[١٧] مِنَ الكـتَّانِ يَلمَعُ فِى نُورِالشَّمس، وتضعُ حولَ رأسـها خمارًا مِنَ الحريرِ المِصْرىِّ، يتَغيرلونُه فى شُعَاعِ الضَّوءِ ويتأَلقُ فوقَ وجْهِهَا الجميلِ. وكـان لونُها الخَمْرِىُّ مُشـرَبًا بحُمرةٍ يسرى فيها رَوْنَقُ[١٨] الشَّباب، وعَيناها السَّودَاوان تُضيئانِ فى حَلاوةٍ، فإذا نظرتْ بهمَا ترقرقتْ[١٩] فيهما بَسْمَةٌ وديعةٌ، وكان فى أُذُنَيْها قُرْطانِ مِنَ الذهب، تتدلَّى منهما حَبَّاتٌ من لُؤلُؤ البَحْرَيْن أهْداهُما إلَيْها أبوهَا مَالِكُ بنُ قُرادٍ.

(١١) الرواحل: جمع راحلة وهى من الإبل الصالحة للأسفاروالأحمال.
(١٢) أحدو: أسوق.
(١٣) سدرة: شجرة نبق. الجمع: سِدَروسِدْر.
(١٤) حداءك: غناءك.
(١٥) شملته: الشملة كساء يتلفع به، الجمع: شملات.
(١٦) يثب: يقفز.
(١٧) معصفرًا: مصبوغًا بنبات العُصْفُر.
(١٨) رونـق: جمـال.
(١٩) ترقرقت: لمعت وتلألأت.

٣ عَبْـدُ عبـلة:

وأقبَلَ نحْوها نِساءُ أعْمَامِها وبَنَاتُهن ومَنْ كَانَ مَعَهُنَّ مِنْ آلهنَّ [٢٠]، فأسْرعَتْ نحْوهُنَّ تستقبلُهُنَّ وكانتْ فيهن ابنةُ عمِّها مَروةُ ابنةُ شَدَّادٍ فَقَالتْ لها تُعابثُها: أنتِ أولًا ونحن بعدَكِ، ألسْتِ يا عبلةُ أميرةَ فتياتِ عَبْسٍ؟ فنظرتْ إليها سُميةُ أمُّها باسِمةً، وقَالَتْ:

أهِيَ الغَيْرةُ مَرَّةً أُخرَى يا مَرْوَةُ؟ فَقَالتْ مروةُ ضَاحِكة: سوف أشْكُو هَذَا العَبْدَ لأبِى؛ إنَّه عَبْدُ أبِى شَدَّادٍ، ولكِنَّه لا يخدُمُ إلا عبلةَ.

فقالتْ عبلةُ فى عِتاب: ألا تترفَّقِينَ به يا مروةُ؟ أليسَ هُو عنترةَ ابنَ زبيبةَ الَّتى أرْضَعتْكِ؟ فقالت مروة ضَاحِكةً فى خُبثٍ: نعَم وهُو الفتَى الَّذِى يُعلِى ذِكْرَ عَبسٍ بالإنشَادِ فى جَمَالِ بنَاتِها. فَصاحَتْ عِندَ ذَلكَ إحْدَى الفَتياتِ تقولُ: ما هذا الحديثُ؟ يكادُ العطشُ يقتلُنى! وقالتْ أُخرى:

ألا تَعرفْنَ مَكانَ الحَوْض؟ ثم انْدَفَعتْ تَجْرِى نَحو وَهْدةٍ [٢١] فى جَانب الوَادِى الصَّخرىِّ، وأسْرعت الفتياتُ وراءَها فَلم يبقَ إلا سُميَّةُ مَع بَعض النِّساءِ، وقد اسْتَلقَتْ فى الظِّلِّ فوقَ الشَّمْلةِ الَّتى كَان عنترةُ بَسَطها لعبلةَ.

ولما فرَغَ عنترةُ من إناخَةِ الإبِل فرَّقَ العَبيدَ والأَتباعَ فِرقًا، فأمر بعضهُم بأنْ يذهبُوا لسِقَاية الإبِـل. وأمر آخرين أنْ يَضْربوا أَخْبِيةَ [٢٢] النساء قريبًا مِنَ الماء، وأمَر غيرَهُم أن يُوقدوا النيرانَ لإعْدادِ الطعامِ..

ثُمَّ ذهبَ إلى ناقة بيضاء فحلبَ منها فى إناءٍ مَلأهُ، وَوَضعَهُ فى الظِّلِّ فوقَ صخرةٍ عالية ليَبْردَ فى الهَواءِ. ومَضَى بعدَ ذَلكَ إلى البِئرِ فَسقَى جَواده، ثُمَّ رَكِبهُ ودارَحولَ الوادِى ليَرى هَلْ هُناك قومٌ ينزلُون عَلى مَقربةٍ من الماءِ حتَّى إذا ما اطمأنَّ إلى أنَّه فى مَأمَنٍ، وأنْ ليسَ هُناك ما يَخشاهُ، أَوْغل [٢٣] بين الكُثبَـانِ وجَعلَ يجُـوسُ [٢٤] خلالها، ويتأملُ ما عَلى رمالِها مِنْ آثارِ الأقدام وأخْفافِ الإبل ومخالبِ الحَيَوان، ثُمَّ عادَ يسيرُ وئيدًا وهُو يُغنِّى وينَقِّلُ طَرْفَهُ [٢٥] فى جوانب الأفُقِ، حتَّى اقْتَربَ من الماء فوثَبَ عَنْ فَرسه وألْقَى زِمَامَه عَلى ظَهْرِه، وبعثَهُ إلى ناحيةٍ مِنَ الوَادِى.

واتَّجَهَ عنترةُ بعدَ ذلك إلى الماء وهُوَ لا يَزالُ يُغنِّى، وكانَ العبيد قدْ فرغُوا من سقَايتِهم، فَسَمِعَ من وراءِ شُجيراتٍ صَوْتَ فتياتٍ يضْحَكْنَ ويمرَحنَ فى أقصَى شِعْبٍ صخرىٍّ من شِعابِ الوادِى. وكان يعرفُ ذلك الشِّعبَ وفيه حوضٌ واسعٌ من الصَّخرِ تجتمعُ فيه المياهُ إذا أمطرتِ السماءُ فيكونُ مثلَ بُحيرةٍ صافيةٍ تُظللها أغصَان السَّيَال [٢٦]، فأطلَّ من وراءِ الشُّجيرات فرأَى عبلة وصَاحبَاتِها يتواثَبْنَ ويعبثُ بعضُهن بالماء ويتقاذفْنَ به. ورأى عبلةَ وهى تلهُو بينَهُنَّ وتُجاوبُهن، فوقفَ يتأمَّلُ وجهَها ويستمعُ إلى صَوتِها إذْ تُكَرْكِرُ فى ضَحكها.

(٢٠) 🕮 آلهـن: أهلهـن.
(٢١) 🕮 وهدة: مكان منخفض، الجمع: وِهَاد.
(٢٢) 🕮 أخبية: المفرد خباء؛ وهى الخيمة.
(٢٣) 🕮 أوغل: ذهب وأبعد وتعمق.
(٢٤) 🕮 يجوس: يجول ويتردد ويطوف.
(٢٥) 🕮 طرْفه: نظره. الجمع: أطراف.
(٢٦) 🕮 السَّيال: شجر شائك، متوسط الحجم له قشر أحمر.

٤ ذكريات أليمة:

وعاودته ذكرياتُ أحلامه التى كانَ يكتُمها فى طيَّات صدرِه ولا يجرُؤُ على أن ينطقَ بِسرِّها، أحسَّ قبضَة حُزْنٍ أليم تعصِرُ قَلبَه؛ إذْ تذكَّر أنه لا يزيدُ على أنْ يكونَ عبدَ عمِّها شدَّادٍ . نَعمْ فَما كَانَ عنترةُ سِوَى عبدٍ من عبيدِ ذلك البَطَل العبسىِّ الباسل الصارم ولم يكُنْ يجرؤُ عَلى أَنْ يفوزَ مِنْ عَبلَةَ بأكثر من أنْ يدعُوَها قائلًا: «سيدَتِى»، وَفيما كَانَ هائمًا فى خياله تذكَّر إناءَ اللَّبَن الَّذى وضَعَهُ فوقَ الصَّخرةِ ليبرد فى الهواءِ فأسرعَ إليه وعادَ به فجعلهُ على حَجَرٍ قريبًا من عبْلَةَ إذَا خَرَجَتْ مَعَ صَاحِبَاتها.

وجَعَلَ يُفكِّر فى نفْسِه حزينًا وهُو واقفٌ ينظُر إلى الفتياتِ وهُنَّ لا يشعُرنَ بوجُودِه. لقد ملأ وعاء اللَّبنِ عَلى عادتِه كُلَّ يومٍ لتشربَ منه عبلةُ قانعًا بما تكافِئُه به مِنْ نظراتِها وبَسماتِها، ولكنَّه ما كَانَ يجرؤ علَى أنْ يتنفسَ باسمِها أمامَ أحدٍ من عبسٍ، خَوْفَ أن يتحدَّث الناسُ بأنَّهُ عبدٌ يتطلعُ إلى ابنة مالِك أخِى سَيِّده شدادٍ. لقدْ كَانَ يُحاذِرُ أن يتحدَّث أحدٌ بأنهُ ينظرُ إليها إلا كمَا ينبغى للعبدِ أن ينظُرَ إلى مَولاة له، فما كانَ مَالكُ بنُ قُرادٍ ليرضَى أن يتطلع عبدٌ مِثْلهُ إلى ابنتهِ الجميلةِ التى يتنافَسُ علَى التَّقربِ إليْها سادةُ الشبان من كِرام الأنساب، وما كَانَ أخُوها المتكبرُ عمرو بنُ مالِك ليرضى أن يُعيِّره أصحابُه من فِتيان عبسٍ بأنَّ عنترةَ العبدَ يطمحُ أنْ يملأَ عينيهِ من أُخْتهِ.

وقفَ عنترةُ سابحًا فى خيالِه وهو ينظُر إلى عبلَة بينَ الفتيات، ويستمعُ إلى صَوتِها بينَ أصواتِهنَّ، وامتلأ قلبُه شجنًا(٢٧) أليسَ هو عنترةَ الذى يحمى حِمى عَبْس إذا أغارَ المغيرُ عليها؟ أليسَ هو الفَارس الذِى سَارذِكرُهُ فى قبائل العرب وتغنَّى الرُّكبانُ(٢٨) بقصائِده فى تمجيد عَبسٍ؟

أكانَ فى عبسٍ كلِّها بطلٌ يستطيعُ أنْ يَثْبُتَ له فى نـزالٍ(٢٩)، أو يُنكرَ فضلهُ فى الدفاع؟ ومَعَ ذَلكَ فَقَد كان لا يزيدُ على أنْ يكونَ عبدَ شداد بن قرادٍ.

(٢٧) شجنًا: حزنًا. الجمع: شجون.
(٢٨) الركبان: الجماعة فوق العشرة.
(٢٩) نزال: معارك، قتال.

٥ عَبَثٌ ومَرَحٌ:

وفيمَا هُو فى خيالاتِه رأى عَبْلَة تميلُ فوقَ حَوْضٍ صغيرٍ لترى صُورتهَا عَلى صَفحةِ مَائِهِ، وجعَلتْ تُصلحُ من شعرها الذى اضطربَ فى أثناءِ جَريها ولعبِها، فلم يملكْ نفسَه واندفعَ من مَكانِه مُسرعًا نحوها، وقال لها بِصوتٍ هامسٍ:

- ألا تَرَيْنَ عَرارَةً (٣٠) يانعةً من عَرارِ الرَّبيع؟

فصرخت عبلةُ عند سماعِ الصَّوتِ فجأةً، ولكنَّها اطمأنَّت عِندما رأته وقالتْ ضاحِكةً: لك الويلُ يا عنترةُ، فمضَى عنترةُ قائلًا: أو أُقحوانَةً (٣١) باسمةً سَقَاها النَّدى؟

وأقبلتِ الفتياتُ عِندما سَمِعْنَ صوتَ عبْلةَ، فَلما رأينَ عنترةَ إلى جانبها انفجرتْ منهنَّ ضحْكةٌ مرحة وأسرعن إليْه يَصِحْنَ به، ويتواثَبن حولَه، ويجذِبْنَ أطرافَ ثوبِه، وكُلٌّ مِنهُنَّ تتجهُ إليهِ بكلمةٍ من فُكاهةٍ، أو سبابِ مُزاحٍ.

وقالت مروةُ بنةُ شدَّادٍ: ماذا جاء بِكَ إلى هُنا؟

فمدَّ يدَيْهِ نَحوها فى ضَراعةٍ وقال باسمًا: لأكونَ فى خدمتك يا سيدتى. فقالتْ مروةُ ضاحكةً: فى خدمتِى أنا؟

فضحكت الفتياتُ، وأقبلنَ عليه، وكلٌّ منهنَّ تقذفهُ بكلمةٍ، وهو يُنَقِّلُ نظرهُ بينهنَّ ضاحكًا حينًا ومتظاهرًا بالغيظِ حينًا، وهنَّ يزدْن منه ضَحِكًا ويَمْضِين فى العبثِ به، وأرادَ أنْ يصرِفَهُنَّ عنه فذهبَ إلى وعاءِ اللَّبنِ فأقبلَ بِهِ، وقدَّمه إلى عبلةَ قائلًا:

هذا شَرابُك يا سيدتِى، لقد برَّدتْهُ الشَّمال (٣٢)، وهبتْ عليه رَوائحُ الأقاحِى، فَهجَم عليه الفتياتُ يُرِدْنَ أن ينْزِعنَه (٣٣) منه، ولكنَّه منعَه حتَّى قدمَهُ إلى عبلةَ قائلًا: هذا شرابُك يا سيدَتى. فقالتْ له عبلةُ فى شىءٍ من الغَضَب: حَسْبُكَ يا عنترة، إنك تُجرِّئهُن علىَّ. فمد يدَه بالوعاءِ نحوها وقال: لا عليكِ مِنهُنَّ فهنَّ كما تعرفِينَ حَمقاواتُ عَبسٍ.

فعلا ضحكُ الفتياتِ وأحطْنَ به فنزَعْنَ الوعاءَ منه وأخذَتْه مروةُ قائلةً: هاتِ أيُّها العبدُ الآبِقُ (٣٤). ثُمَّ شَرِبَتْ منه وتداولتْه صاحباتُها، فَلمَّا فرغْنَ من الشَّرابِ أقبلْنَ على عنترة مرةً أُخرى وأحطْنَ به واقتربتْ منه فتاةٌ فصاحت: لا نَدعُكَ حَتَّى تُنْشِدَ لنا من شِعْركَ. فصاحت سائرُهن: نعم أنشدْنا يا عنترةُ. وقالتْ مروةُ فى خُبثٍ: أَنْشِدنَا وإلا قَطَّعْنَاكَ حتَّى لا ندعَ مِنْك إلا أَسْنَانَك البيضَاءَ.

فالتفتَ عنترةُ حتَّى وقعت عينُه عَلى عَبلةَ وقال: لَنْ أقولَ شيئًا حتَّى تأذَن لى سيدَتِى. فاتَّجَهْنَ جميعًا إليها وقُلْنَ لها: مُرِى عبْدَكِ أن يُنشِدَنا وإلا أحطْنا بِكِ أنتِ ونزعْنَا غدائر (٣٥) شَعركِ.

فقالت عبلةُ ضاحكةً: حسبُكُنَّ أيتُها الفتياتُ سُخفًا. فصاحتْ بها مروةُ: مُرِيه يا عبلةُ أن يُنشدَنا، مُرِى هَذا العبدَ الَّذِى لا يأتمرُ إلا بأمرك. لقد انتزعْنا مِنه وعاء اللبنِ، ولكنَّنا لا نقدرُ أن ننزعَ منه الشِّعرَ. فقالتْ عبلةُ وهى تُظهرُ الغيْظَ لعنترةَ: ما أخبثَك يا عنترةُ إذْ تُحرِّضُ هؤلاء علىَّ مرةً بعدَ مرةٍ!

فقال عنترة: وماذا يُغضِبُك علىَّ يا سيدتى؟ إنَّنى لا أرْضى بأنْ أكُونَ عبدًا لواحدةٍ غيرِك. لستُ أَرْضَى أن تكونَ سيدتِى سِواك.. فزادَ ضحكُ الفتياتِ، وقالت مروة: عنترة عبدُ عبلةَ، هكذا نُسمِّيه منذُ اليوم بعدَ أنْ كَانَ عبدَ شدَّاد.

(٣٠) العرار: نبت طيب الرائحة، والواحدة: عرارة.
(٣١) أقحوانة: نبات أبيض لا رائحة له، الجمع: أقاحٍ.
(٣٢) الشمال: ريح تهب من هذه الجهة.
(٣٣) ينزعنه: يأخذنه منه بالقوة.
(٣٤) الآبق: الهارب.
(٣٥) غدائر: ضفائر، المفرد: غديرة.

٦ عبلة تأذن لعنترة فى إنشاد شعره:

فأقبلتْ عبلةُ عليها ودفعتْها برفقٍ فى صدرِها، وصاحتْ بعنترةَ فى غَضَبٍ باسمٍ: قل شِعرَكَ يا عنترةُ، إن الغَيرةَ لتأكُلُ قُلوبَهنَّ كما قالت سمية منذُ حينٍ. أَنشِدْ شعرَك حَتَّى يملأَ الغيظُ صُدورَهنَّ.

فوثب عنترةُ فى مَرَح، وجَعل يُنشِدُ مُتغنيًا بقطَع من شِعره، والفتياتُ يضربْنَ بأكفِّهنَّ على وقْع إنشادِه، وعبلةُ تنظُرإلى وجهه الأسمَرِ الحسن القَسَماتِ(٣٦)، وتتأمَّلُ حركته الرشيقةَ وهو يُمثلُ مواقفه فى القتالِ حينًا، وطعناتِهِ فى العَدوِّ حينًا، أو يصِفُ فرسَه فى مَعْمَعة(٣٧) الحربِ، أو سُقوطَ الأبطالِ صَرْعَى من حَولِه مُضرَّجين بالدَّم، حَتَّى انتهَى إلى النَّسيبِ فجعلَ يصفُ محَاسِنَ فتاتِه ونُبلَ شِيَمِها(٣٨) وعُلُوَّ حَسَبِها.

وتغيَّرمظهرُه عند ذلك فاعتَرتْه رجفةٌ وتَهدَّجَتْ(٣٩) نبراتُ صَوْتِه، واتَّجه إلى عَبلَة ببصَرِه كأنهُ يخاطِبُها بما فى نَسيبِه من الأوْصَافِ، ثُمَّ هدأتْ حركتُه بعدَ عُنفِها، ولانتْ نظراتُه بعدَ أنْ كانتْ تخطِفُ كالبرْق اللّامع، وفتحت الفتياتُ أعيُنَهنَّ مأخُوذاتٍ بما كانَ ينبعثُ فى ثنايا شعرِه مِنْ حَرارةٍ، حتَّى انتهى من إنشادِه وهُوَ يلهثُ وصدرُه يَعلُو ويهبِطُ فى عُنفٍ. نَظَرَ نظرةً طويلةً إلى عبلةَ وهو صامتٌ، وهدأَت الأصواتُ لحظةً وعبلةُ تنظُرإليه فى دَهْشَةٍ عقدَتْ لسَانَها عن اللفْظِ. لَقَدْ كانَتْ تلكَ أوّلَ مرةٍ سمِعَتهُ يُنْشِدُ بهذِه الحَرارَةِ، ويتَّجِهُ إليْها بهذه النظْرَةِ.

٧ تأثيرشعْره على عبلة والفتيات:

ثم انفجرتْ صيحةٌ من الفتياتِ، واندفعْنَ نحو عنترةَ يَستعِدْنَ إنشادَه، ولكنَّه كان مُطرقًا حزينًا صَامتًا. وانفلتَ مُسرعًا من بينهِنَّ، فذهبَ إلى فم الشِّعب بطيئًا، فما زالَ حَتَّى بَلَغ المكانَ الذى تَركَ فِيه فرسَه، فوثَبَ عليه فانطلق به بينَ الكُثبان وهُو غارقٌ فى شُجونِه الثائِرَة.

وذهبت الفتياتُ إلى حيثُ ضُرِبتِ الخيامُ، وأقبلن على مَنْ هُناك من النِّساءِ، فجعلْنَ يتحدثْنَ إليهنَّ بما كَانَ، وكُلٌّ منهُنَّ ترسِلُ فى حديثها كلمةً تُصَوِّرُها ما أحسَّتْ من اتِّجاه عنترةَ إلى عبلةَ فى إنشادِه العجيب، كانت أشدَّهُنَّ خُبثًا مروةُ بنةُ شدَّادٍ، فأرادتْ أن تَغيظَ عبلة ابنةَ عمِّها فجمعتِ الفتياتِ وجعلتْ تنشِدُ، وهنَّ يردِّدْن مصفِّقاتٍ فقالت:

أمــا رأيــتُــم عــنْــتَــرة؟ يـسـيـرُ سَـيْـرَ الـقَـسْـوَرَة(٤٠)
فــى حُــلّــةٍ مُـعَـصْـفَـرة ولِـــمَّـــةٍ(٤١) مُـضَـفَّـرَة
وعِــمَّــةٍ مــكــوَّرَة

أمــا سَــمِــعْــتُــم قَــولَــه؟ أمــا عَــرفْــتــم فــعْــلَــه؟
ويــلٌ لــه يــا وَيـلَــهُ يــنْــشِــدُ مــنْــذُ الــلــيــلــة
عَــنْــتَــرُ عَــبْــدُ عَــبْــلَــةِ

وتعالى ضحكهن بَعْد ذلك، وجَعَلْنَ يُرَدِّدْنَ النشيدَ، ويعبَثْنَ بعبلةَ حتى غضِبتْ وذهبتْ نافِرةً، فَسِرْنَ وراءها، وجَعَلن يَجذبْنها وهى تَدْفَعُهُنَّ، حتى دخلتْ إلى خِبائها(٤٢).

(٣٦) القسمات: ملامح الوجه، المفرد: القَسَمة.
(٣٧) 📖 معمعة: صوت الشجعان فى الحرب. الجمع: معامع.
(٣٨) 📖 شيمها: المفرد: شيمة، وهى الخلق.
(٣٩) 📖 تهدجت: تقطعت.
(٤٠) 📖 القسورة: الأسد.
(٤١) 📖 لمة: الشعر الذى تجاوز شحمة الأذن.
(٤٢) خبائها: خيمتها. الجمع: أخبية.

الفصل الثانى

البَطَـلُ الثَّـائِـر

مجمل الأحداث

١- ضيق عنترة من قومه وحبه لشداد على الرغم من قسوته فى معاملته.

٢- حبه المكتوم لعبلة.

٣- عنترة يخلو إلى شيطانه.

٤- نظرة شيبوب وعنترة إلى الحياة.

٥- دوافع لوم وعتاب عنترة لأمه.

٦- شيبوبٌ يحذر عنترة من خداع الحب.

٧- حبٌّ عظيمٌ تهون أمامه كل التضحيات.

٨- عبلة تتغنى بشعر عنترة.

تفصيل الأحداث

١ ضيقُ عنترةَ من قومِه وحبِّه لشداد على الرغمِ من قسوتِه فى معاملتِه:

كان القمرُ يقتربُ من التَّمام فى شهرِ رَجب الحَرام، فلَم يكنْ هُنالكَ ما يدعُو عنترةَ إلى الخَوْف من غَارةٍ مُفاجئةٍ، فَما كَانَ العربُ لِيَنْتهكوا[١] حُرمةَ ذلك الشهرِ الذى تعَوَّدُوا فيه قضاءَ مَناسِك[٢] الحجِّ إلى الكعبة أو إقامةَ أعيادِ آلِهَتِهمْ فى مَنازِل قبائلهم؛ ولهذَا سَارَ يضربُ هائمًا حتى بَسطَ القمرُ نورَه، ولاحتْ قِمَمُ رُءوسِ النخيلِ والأشجار مَطْبُوعةً على صفحة السماء كأنها لَوْحةُ فنانٍ.

كَانَ فى سَيْرِه يُنَاجى نفسه بما فِيها من شُجُون وهُموم، وقَدْ وَقعَ فِى قلبِه أنّه أخْطأ وأفصَحَ، أو كَاد يُفصِحُ عما كانَ يُضْمِرُ[٣] فى قَرارة صدرِه من تَعلُّقٍ بالفتاةِ الّتى ملكتْ عَليه فُؤادَهُ.

كَانَ يُحدِّثُ نفسَه بأنَّه لا يزيدُ فى نظرِ النَّاسِ على أنه عبدٌ لا ينبغِى لهُ إلا أنْ يَقُومَ على خِدمةِ سادَته الّذين ائتَمنُوه. ولكنَّه كانَ معَ ذلكَ يحِسُّ فى نَفْسِه غضبةً وثورةً. وكان يُحسُّ فى نَفسِه أنهُ فَتى الفِتيانِ، وأنّه بَطلُ عَبسٍ كلها. فلَقَدْ طَالمَا ناداهُ سادةُ القبيلةِ ليفرِّجَ[٤] عنهم كُربةَ[٥] الحَربِ إذا أغارَ عليهمُ الأعداءُ، وقد طَالما لبَّى نِداءهم وبرزَ فى صَدْرِ الفُرسانِ فلا يَقِفُ له العدوُّ بعدَ أنْ يذوقَ من وَقْعِ طَعنَاتِه ما يَجْعَلهُ يُؤثِر[٦] الهزيمةَ والفِرارَ، فإذا ما انجلتِ الكُربةُ وعادَ سادةُ عَبس بالنَّصْر وحَملُوا من أموالِ العدوِّ وسِلاحِه ما غنِمه لهُمْ، حَازُوا ذلك كلَّهُ لأنفُسِهم فقَسَّمُوه بَينَهُمْ. ولم يَجعلُوا لَهُ إلا نصيبًا ضَئيلًا، فكانُوا لا يَجعلُونَ له سِوَى نِصْفِ سهم مِنَ الغنائِم، ويَستأثرون[٧] هُم بكُلِّ ما سَلبَهُ لهُم مِنَ الأعداء. وكَانَ مع هَذا لَا ينطق بكلِمة شَكْوى، فَما كانت تِلكَ الأموالُ كلُّها لِتَحْمِلهُ عَلى أنْ يَتألَّم أَوْ يَشْكُوَ، ولكنَّ شيئًا واحدًا كانَ يملأُ قلبَهُ حُزنًا وغَضَبًا، وذَلك أَنَّه كَانَ فيهم عبْدًا، لم يَكُن اسمه بينَهُم سِوَى «عبدِ شَدَّادٍ».

(١) ينتهكوا: يَسْتَحِلُّوا.
(٢) مناسك: شعائر. المفرد: مَنْسَك.
(٣) يضمر: يخفى، المضاد: يظهر.
(٤) يفرج: يزيل.
(٥) كربة: المراد: شدة، الجمع: كُرَب.
(٦) 📖 يؤثر: يُفَضِّل.
(٧) يستأثرون: يختصُّون أنفسَهم.

وكَانَ كُلمَا تأمَّل حَالَهُ تعجَّبَ مِنْ نَفسه، كيْفَ يرضَى أنْ يُقِيمَ فى قَوم يحميهم ويُدافعُ عنهُم، ويَجْلُبُ لهمُ النَّصْرَ، ويحملُ إليهم الغنائِمَ، ثُم لا يَجدُ مِنهُم إلا الإنكارَ والبُخلَ ولا يَسمعُ فى ندائهم إلا قَولهم: «عَبْدُ شدَّادٍ»؟! وزَادَ من عجَبِه أنَّه كُلَّما تذكَّر سَيِّده شداداً أحَسَّ نَحْوه عطفًا.

كانَ حُبُّ شدَّادٍ يملأُ قلبَ عنترةَ، فلا يُزَعْزِعُه[٨] شىءٌ مِمَّا يُزَعْزِعُ حُبَّ القُلوبِ، كانَ شَدَّادٌ صورَةَ البَطَل عِند عنترةَ، وصورة السَّيدِ، كان يقسُو عليه أحياناً ويَعْنُفُ[٩] مَعَهُ فى الحديثِ أحياناً، بَلْ لَقد كانَ أحْياناً يَمُدُّ إليه يَدَه بِالسَّوطِ فيتحمَّلُ مِنه الضَّربةَ جامِدًا، ولا يَزِيدُ عَلَى أنْ يَقُولَ لَه:

لنْ تَستَطيعَ أنْ تَصْرفنى عَنْ حُبِّكَ يا سَيِّدى.

وكثيرًا ما سَألَ نَفسَه: أحقًّا ما زَعَمتْهُ زبيبةُ أُمُّهُ، إذْ قَالَتْ لَهُ فى صباه إنَّهُ ابنُ شَدَّادٍ؟ لقدْ سَمِع هَذا القَولَ يَومًا وهُو صَغيرٌ فامتلأ قَلْبُه فرحًا وكِبْرًا، ولكن أمَّه كانَتْ تُوصِيه ألا يُعيدَ قَوْلها للنَّاس؛ خَوفًا مِنْ أنْ يَغضَبَ سيِّدُها الصَّارم، فلمَّا كَبِرَ عنترةُ وصارَ فارسَ قَومه أمْسَكتْ زَبيبةُ عَنْ قَوْلها، فَكان عَنترةُ كُلَّما أرادَ أن يَسْألَها عَنْ نَسَبِه رَاوَغَتهُ[١٠] وقالتْ له إنَّ شَدَّادًا سَيدُها الَّذِى أكرَمَها وربَّاهُ وَربَّى سائرَ أولادِها.

ولكنَّ عنترَةَ كَانَ يَسأَلُ نفسَه كُلَّما خَلا بها: ألا يَكونُ ذلك الرَّجلُ حقًّا أباهُ؟ فإذَا لَمْ يَكُنْ شدَّادٌ أباه، فَما سِرُّ ذَلِك الحُبِّ الَّذى يحمِلُه لهُ، ولا يَستطِيعُ أن ينزعَه مِنْ قلبه مع كُلِّ مَا يَلقَى من صَرَامَتِه وكِبريائه؟

٢ حبُّهُ المكتـــوم لعبلــة:

مَضَى عنترةُ يَهِيمُ[١١] فِى ضَوء القَمرِ وهو يَسبَحُ فى شُجُونه[١٢]، وكان يُحِسُّ أنَّ الحَرَكةَ فى ذَلكَ الفَضَاء الَّذِى يغمرُه النورُ الرقيقُ تبعثُ فى نَفْسه راحةً، وتُخفِّفُ من شِدَّة الثَّورَة الَّتى كانَتْ تَعصِفُ بين أضْلاعِه. وكانتْ صُورةُ عَبْلَةَ تتمثَّلُ لهُ عِند كُلِّ خطوةٍ يخطوها، كَانَ يَرى صُورَتَها فوْقَ كُلِّ صَخْرةٍ مُتلألئة، وعِندَ كُلِّ ثَنِيَّةٍ[١٣] ظَليلةٍ، كانتْ صُورَتُها تَخفِقُ فى الفَضَاء اللَّامِع وتنطبعُ على صفحةِ البَدْرِ المنير، فهلْ كَانتْ عَبلةُ حقًّا لا تَزيدُ عَلَى أنْ تَكُونَ سيِّدَةً وهُوَ عَبْدُها، أو عبدُ عمِّها؟ لقدْ لاحَتْ[١٤] لَهُ الحيَاةُ باطلةً كَريهةً عِندما تأمَّلَ أنَّه لا يَستَطيعُ أن يَجْهَرَ بما يَحْمِلهُ لَهَا، ولا يَجْرُؤُ عَلَى أنْ يَتَطَلَّع إلى التَّسامى نَحْوَها. فكانَ أحياناً يلومُ نَفْسَهُ عَلَى أنَّه قَدِ اندَفَعَ فتكلَّم وأنشدَ الشعرَ حتَّى بلغَ من الأمرِ أنْ سَبَّبَ لعَبلة حَرَجًا وغضبًا، ولكنَّه كان يعُودُ إلى نَفْسِه غاضبًا ويلومُ نفسَه عَلى أنْ يَرضَى بأنْ يبقَى فى بَنى عَبسٍ عبدًا، فما الَّذى يمنعُه مِنْ أنْ يتكلَّم كمَا يتكلمُ الناسُ؟ وما الَّذى يقعدُ به عَن أنْ يتطلعَ إلى عَبلةَ الَّتى امتلأَ قَلْبُه بحبِّهَا؟ فهَلْ رضِيَ بأنْ يقضىَ كُلَّ حَياتِه عبدًا خاضعًا يكْتُم ما يُحِسُّه؟ هلْ يرضَى بأنْ يبْقَى بينَ قومِه عبدَ شدَّاد، فلا يَسمح لنفسِه بأنْ يَنْطِق بكَلمة تَنِمُّ[١٥] عن حُبِّها؟

(٨) يزعزعه: يحركه بشدة، المراد: يضعفه.
(٩) يعنف: يشتد.
(١٠) راوغته: ماطلته وهربت منه.
(١١) يَهيم: يمشى بدون هدف.
(١٢) 🕮 شجونه: أحزانه. المفرد: شجن.
(١٣) 🕮 ثنية: منعطف. الجمع: ثنايا.
(١٤) 🕮 لاحت: ظهرت. المضاد: اختفت.
(١٥) 🕮 تنم: تدل وتشير.

وكان كُلَّما سَرَح به الفِكْرُ عاد فسألَ نفسَه عن حقيقةِ تِلكَ الأقْوال التى سَمِعَها فِى صِبَاهُ من أمِّه إذْ قالتْ له إنَّ شدادًا أبُوه، ألا يَكونُ ذَلك حقًّا؟ وما الذى يمنعُه مِنْ أنْ يذهبَ إليها فيسْألَهَا ويعرفَ مِنها حَقِيقةَ نَسَبه؟ فإذا كانَ عبدًا كما يَزعُمون وضع السَّيفَ فى صَدْرِه فَخلَصَ مِنَ الحَياةِ، وأمَّا إذَا كَانَ ابنَ شدَّادٍ فَلَمْ يَرْضَى بأن يكونَ بَينَ النَّاسِ عبدًا؟ ولما استقرَّ على هَذَا الرأْى أحسَّ أنَّ نورَ القمرِ يزيدُ فِى عينَيه بهاءً، وأنَّ نسيمَ الربيع يَهُبُّ على جَبينِه المتَّقد أكثرَ رِفقًا، وأنَّ رائحَةَ الزهْرِ تنبعثُ إلى شَمِّه أذْكى[١٦] عطرًا، وأنَّ مَنظَرَ الشِّعاب ورُءوس النخيل والشجرِ يَبدو قطعة مِنْ عَالَمٍ سِحْرىٍّ يفيضُ جمالًا، ويُناديه أنْ يزدَادَ تعلقًا بالحَيَاة.

وعادَ إلى مَضربِ الخِيام خَفيفًا بعدَ جوْلَته، وذهبَ قاصدًا إلى خِباء عبلةَ ليَرى كيفَ بَاتَتْ، وليدُورَ حَوْلَ الأخْبية قَبْلَ أنْ يَذهبَ إلى مَضْجَعهِ لِيَسْتَريح.

ودارَ حَـولَ آخـرِ ثَنِيَّةٍ تُفْضِى إلى فَمِ الوَادِى، وهُو مُنصَرِفٌ إلى هَواجسه[١٧]، فسَـمِعَ صَوتًا يُناديه من وَرائه: أمَا إنَّكَ لحارِسٌ غافلٌ!

فَالتفتَ مِنَ المفاجأة، ولكنَّه تَسَمَّرَ عِندَما رأَى أخَاهُ شَيبوبًا واقفًا فى ظِلِّ الثَّنية بقامتِهِ الطوِيلةِ والرمحُ فِى يَمينه مَغروزٌ فى الرِّمَالِ.

فقالَ يُخاطِبُ أخَاه: لم يَكُنْ غيرُك ليفْعَلَ ذلك أيُّها الخبيث! فقال شيبوبٌ: بئسَ حارسُ القوم أنْتَ، تَبعُدُ عَنْ مَنازِلِ النِّساء وتخلو بنفْسِكَ إلى مِثْلِ هَذا الوقْتِ من اللَّيْل؟! فَقَال عنترةُ: ألسنا فى الشَّهرِ الحَرام؟

فقالَ شيبوبٌ ضَاحكًا: وهَل مَنَعَ الشهرُ الحَرامُ مَنْ أرادَ الانتقَامَ؟

فقالَ عنترةُ فى كِبرياء: صَدقتَ، ولكِنَّ العدوَّ لا يجرُؤُ على أن يَقْتربَ منِّى. فقالَ شَيبُوبٌ: وهَل يجدُ العَدُوُّ مِثلَ هَذِه الليْلَة؟ إنَّكَ لتُناجى النجُوم كَأنَّك تُحدِّثُها. لقدْ رأيتُكَ وأنتَ سَائِرٌ، وأَتبعتُكَ بصَرى حيثُ سِرْتَ، وقَد خُيِّلَ إلىَّ أنك تَخلُو إلى شَيْطَانِكَ.

٣ عنترة يخلو إلى شيطانــه:

فقالَ عنترةُ: نعمْ يا شَيْبوبُ قد صَدقْت. إنَّنى أخْلُو إلَى شَيْطانِى، وإنِّى لأنظرُ إلى النُّجُوم، فَيُخيلُ إلىَّ أنَّها تُحدثُنِى.

فَقَالَ شيبوبٌ ضَاحِكًا: أَلَا تقولُ لى ما أوحَتْ به إليْكَ؟

فقالَ عنترة فى حُزنٍ: كانتْ تَصيحُ بى: «أيُّها العبدُ، لِمَ جئتَ إلى هَذِه الأرْض؟». فَقَهْقَهَ شَيبوبٌ وقَال: إنَّها إذنْ لحمقَاءُ، لقدْ أتيتَ إلَى هَذِه الأرْضِ كَما يأْتى الناسُ جميعًا، تقذفُ بِهِم أمَّهاتُهم إليْها.

فقالَ عنترة: صَدقتَ إنَّها أُمِّى الَّتى قَذفَتْ بى إلَى هَذه الأرضِ - إنَّها هِىَ الَّتى جَاءَتْ بى إلى هَذه الحَياة، لأرْعَى إبلَ شَدَّادٍ، ولأقْضِىَ نَهارى وليلى فى فيافِى[١٨] أرض الشَّربة؛ لأحْمِىَ إبلَهُ من الذِّئاب والسِّباعِ. هِىَ الَّتى قذفت بى إلى عَبْس؛ لِكَى أحاربَ مِنْ أجْلهم، وأحوزَ لهُم الغَنائِمَ الَّتى يَسْـمَنُون عَليْها، ثم يمرُّونَ بى فينظُرون إلىَّ بمُؤخرة أَعيُنهم قَائِلين: «هَذا عبدُ شـدَّادٍ». فإذا مَا جَاءَ الليلُ أَوَيْتُ[١٩] إلى مَضْجَعى فَلا أكادُ أسـتقرُّ عليهِ حتَّى تُساورَنى الهُمُومُ، وتُلهبَ قَلبِى، فأثِبَ خارجًا مِنْ ظلِّ بيتى لكى أَسْتروحَ من أنفاسِ اللَّيل البارد، لعلَّها تُذهِبُ عَنِّى حَرَارة حُزْنِى.

فقالَ شيبوبٌ فى خفَّة: أَهَذا ما دَفَعكَ إلى السَّيْر؟

فَقَال عنترةُ فى حُزن: نَعَمْ، هَذا ما دفَعنِى إِلَى أنْ أَهِيمَ علَى وجْهى، وكانَ يُلهبُ ظَهرِى كَمَا يُلهبُ السَّيدُ ظهْرَعَبْدِهِ بالسَّوطِ.

(١٦) أذكى: أطْيَب.
(١٧) 🕮 هواجسه: مخاوفه، المفرد: هاجس.
(١٨) 🕮 فيافى: المفرد: فيفاء؛ وهى الصحراء الواسعة والطريق بين الجبلين.
(١٩) أويت: لجأت، ذهبت.

٤ نظرة شيبوب وعنترة إلى الحيـاة:

ومَدَّ يَده فأخَذ شيبوبًا من ذِراعِه وذهَب به إلى جَانبٍ، فجَلسَ إلى جَانِبِهِ، وجَعلَ يَمسَحُ رأسَهُ مُداعبًا ثم قَالَ له بَعد حِين: لا تُؤاخِذْنِى بما قُلْتُ فإنِّى يابن أُمِّى أعرفُ أنَّك الرجُلُ الَّذى يُحبُّنى أشَدَّ الحُبِّ وأخْلصَهُ. وإنك عِنْدى لأكرمُ مِنْ هَؤلاء السَّادةِ الَّذين يَشْمَخُون[٢٠] بِأُنوفهم كِبرًا وهُمْ لا يُساوونَ شيئًا. إنك لسَريعُ الجَرْى كالظَّليم[٢١]، وما أبدَعَ مَنْخريْكَ إذا هُما انفتحا فى جَرْيكَ كما يَنفَتِحُ مَنخَرَا الفَرَسِ الأصِيل وهُوَ يعدو! إنك لشُجَاعُ القَلْبِ طيبُ النفس لولا هَذَا الرعبُ الَّذى يَعتريك إذا رأيتَ مَنْظَر الدِّمَاءِ، فأنا أُحبُّكَ يا شَيْبوبُ وأُجِلُّ[٢٢] مَكانَك، وإنْ كُنتُ أخالِفُك فِى رَأيكَ فيما تَذْهَبُ إليه، فتملَّص منه شيبوبٌ برِفْقٍ ونَظَرنَحْوَه باسمًا حَتَّى لمعتْ أسْنانُه البيضاءُ فى ضَوءِ القَمروقال له: وإنِّى والله أُحبُّك وأرْثِى[٢٣] لَكَ مِن هَذِه الوسَاوسِ الَّتى تُؤرِّقُكَ وتُضْنِى قَلبَكَ. دَعْنى أيُّها المِسْكِينُ أمْضِ لشأنِى فإنِّى تَركتُ فى خَيْمتى ثَريدًا[٢٤] وقمتُ أبحثُ عنك مُنذُ أبطأتَ فِى جَولَتِكَ، فَقدْ خشِيتُ أنْ يكونَ قدْ أصَابَك شَرٌّ. فتبسَّم عنترةُ وقَالَ: عُدْ إلى ثَرِيدِكَ فانْعمْ به، ولَو كانَ فِى قَلْبِى فراغٌ لشَارَكْتُك. فقال شيبوبٌ وهو يَهُمُّ بالقيام: كُلْ أيُّها الرَّجلُ واشربْ، فَوَحَقِّ مَنَاةَ ما يخرجُ المرءُ مِنَ الحياةِ إلا بِهذَين: الطَّعام والشَّرَابِ. فَنظَرإليه عنترةُ فِى هدوءٍ وقَالَ: اجْلس يا شيبوبُ وحَدِّثنى، فإنِّى أحبُّ أنْ أحسَّ وجُودَك معِى. إننى أُحسُّ فِى جِوارِكَ شيئًا يشبه ما يُحسُّه الطِّفْلُ فى جِوارِ أُمِّهِ.

٥ دوافع لوم وعتاب عنترة لأمه:

فضحِك شيبوبٌ وقال: ليتَ زبيبةَ أمَّكَ تسمعُ قَولَكَ هذا! إنَّها تقتلُ نَفْسَها هَمًّا من أجلكَ وتُقطِّعُ قَلبَها حُزنًا عليكَ. فغمْغَمَ[٢٥] عنترةُ كأنَّه يحدِّثُ نفسَه:

لقَدْ طَالما سَألتُها عَنْ أبِى وتَأبَى إلا أنْ تُراوغَنِى فى الجوابِ كُلَّما سألتُها. لقد سَمِعتُها يومًا تقولُ لى إنَّنى ابنُ شَدَّادٍ. ولكنَّها لا تَرضَى أَنْ تُعيدَها علَى سَمْعى، وكُلَّما رأيتُ ذَلكَ الرجلَ الَّذى يَدعُونهُ سَيِدِى ويدعُونَنى عبْدَه، هممتُ[٢٦] أنْ أسألهُ فَتخُوننى قُوَّتى، فَضَحِكَ شَيبوب وقَالَ:

عَذِّبْ نَفْسَكَ كما شِئتَ أن تُعذِّبها، وأمَّا أنَا فَقَد رَضيتُ بأنَّنى شيبوبٌ عَبدُ شَدَّادٍ وابنُ زبيبةَ. لقدْ كانَ أبِى منْ صَمِيم جِلْدتى؛ أذكُرُ مُنذُ كُنتُ طِفلًا صغيرًا أنَّنى كُنتُ أعيشُ حُرًّا فى بلادِى هَذه قبْلَ أنْ أُحملَ إلى هَذِه الصَّحراءِ. ولاَ أزالُ أذكُرُأَبى وهُو عائدٌ إلى البيت يلبَسُ جلدَ النَّمرفَوق كَتِفهِ، نعَم أذكرُتِلكَ الأيامَ البَعيدَةَ كَأنها حُلْمٌ غامِضٌ، وكنتُ أنعَمُ فيها بحريَّتى، أذكرُذلك كُلَّهُ، وأمْتَلِئُ كِبرًا؛ لأنَّنى لمْ أولدْ عبدًا، ولستُ أُحبُّ أنْ يَكونَ لِى أبٌ سِوى ذَلكَ الأبِ الّذى جَاءَ بى، وأمَّا أنت فلستَ ترْضَى إلا أنْ تكونَ ابنًا لأَحَدِ هؤلاء الجُفاةِ الغِلاظِ الَّذين يَسُومُونك[٢٧] الهوانَ

(٢٠) يشمخون: يتكبرون. المضاد: يتواضعون.
(٢١) 📖 الظليم: ذَكَرُ النَّعام. الجمع: ظلمان وأظلمة.
(٢٢) أُجِلُّ: أُعظِّم وأحترم.
(٢٣) أرثِى: أرقُّ.
(٢٤) 📖 ثريدًا: فتة الخبز بالمرق.
(٢٥) غمغم: أحدث صوتًا غير واضح.
(٢٦) هممت: عزمت، المضاد: تراجعت.
(٢٧) يسومونك: يذيقونك.

فاطلبْ مَنْ شئتَ مِنهُم مِنَ الآباء. وهَمَّ(٢٨) أنْ يَمضىَ فى سبيله ولكنَّ عَنتَرة جَذبه إليْهِ مِنْ سَاعِدِه فأجْلَسَه فى عُنفٍ، فَصَاحَ شيبوبٌ قائلًا: أما إنَّك لَفَظٌّ عنيفٌ إذْ تجْذِبُنى هَكَذَا فتكادُ تدقُّ عِظامِى، دَعْ ذِرَاعى، فإنَّك تعصرُها عَصْرًا مِثْلَ كُلَّابِ الحَديدِ، وما زلْتَ مُنذُ اللَيْلَةِ تحملُ علىَّ وتُعَنِّفنى. فَقَالَ عنترةُ باسِمًا: لا تُؤاخِذْنِى يا شَيبُوبُ فإنَّنى الليلةَ سيِّئ النفس، وقَلْبى مُمْتلئٌ حزنًا، ولكنِّى لا أجدُ فِى النَّاس مَنْ يُنفِّس(٢٩) عَنِّى سِواكَ، إنَّك الرجُلُ الَّذِى أثقُ فِى عطفِه إذا تحدَّثْتُ إليهِ، وآمَنُ جَانِبَه إذا انصرفَ عنِّى، وأطْمعُ فى عَفْوِه إذَا عَنفْتُ عليْه، أنتَ شرِيكى فِى حَرْبِى، وبك أحْمِى ظَهْرِى. عينُك الحادةُ تُبصِرُ لِى ما خَفِىَ عَنِّى، وسَاقُك تَسْعَى فِى حِرَاسَتى. فَحدِّثْنى واصْدُقْنِى، فَنحنُ فِى هذه الحياة وحيدانِ، لا يعرفُ أحدنا إلا أخاهُ، ولست تجدُ يا شيبوبُ فى هذِه الأرض مَنْ هُوَ أحْنَى عليْكَ منِّى، ولَا مَنْ يعرف قدرَكَ مِثْلى.

فوَقَعتْ هَذه الكلماتُ موقِعًا من شَيبوب فعَدَلَ عَنْ عَتْبِه(٣٠)، وصَمَتَ حينًا ثُمَّ قَالَ: لَستُ أُحبُّ أنْ أبعثَ إلى نَفْسِك ما لا تُحِبُّ يا عنترة، إنَّ ما يرْضِيك أحَبُّ إلىَّ مما يرضِينى. ولَقد كنتُ لا أعرفُ لى صَاحِبًا حتى وُلِدْتَ أنتَ فوجَدْتُ فِيك رَفِيقَ لِعبى، ثُم كبرْتَ وقَوىَ ساعدُك، فوجدْتُ فيك أَملًا جديدًا، فلمَّا بلغتَ مبْلَغَ الرجَالِ، وصِرْتَ فارسَ عبس، أصبحتَ عُدَّتى وملاذِى، فأنا بِك مُبَاهٍ معْجَبٌ، أُحِسُّ أن ما تبنى مِنَ المجدِ هو مَجْدِى، وأنَّ ما تَنالُ مِن السَّعْد هُو سَعْدِى، ولستُ أبالِى أنَّكَ ابْنُ أُمِّى، فإنَّنى مَعَك كأنَّنا نَسيرُ فى مَفازةٍ(٣١) لا نَجَاة لأحدنَا إلَّا بأنْ يَسْلَمَ صاحبُه، ولهذَا كنتُ فى نُصْحى لك ألتمسُ أخفَّ الأقوالِ عليْكَ، فلا أظهرُ لَك رأيى إلَّا فِى قَوْلٍ عابثٍ، يقعُ مِنْ نَفْسكَ وقعًا ليِّنًا، ولكنِّى أظنُّ أن أمْركَ يُوشِكُ أنْ يَصيرَ إلى عقدَةٍ لا يَنْبغى لكَ ولاَ لِى أن نَغفُلَ عن حلها.

٦ شيبوب يُحَذِّرُ عنترة من خِـداعِ الحُبِّ:

وعِند ذلِك سُمِع صوتُ غناءٍ ينبعثُ مِنْ ناحيةِ الخِيام، يَحملِهُ النسيمُ متدفِّقًا متموِّجًا كأنَّهُ صَوتُ الجِنِّ ينبعثُ من بُطون الفَلاةِ(٣٢).

فقال عنترةُ يقطعُ حَديثَ أخيه: أمَا تَسْمعُ هَذَا الصَّوتَ يا شيبوبُ؟ إنَّها ما زالتْ مَعَ صَاحِبَاتِها تُغنِّى.

فقالَ شيبوب: وماذَا يكون لهنَّ إذَا لَمْ يَكُن الغِناءُ حينًا والبكاءُ حينًا؟ فقالَ عنترةُ فى صَوْتٍ ليِّن: إنَّه صَوتُها، لستُ أخْشَى يا شيبوبُ أنْ أتحدثَ إليكَ عَنْها، بل يطيبُ لِى أن ألهجَ(٣٣) معكَ بذكرِها. إن صَوتَها يقعُ فى شغافِ(٣٤) قَلْبِى، وكُلُّ نغمة منهُ تسرِى فى عروقِى.

فَضَحِكَ شيبوب قائلًا: إنَّك تأبَى إلا أنْ تقولَ الشعرَ فِى كُلِّ ما تنطقُ به عنها، إننى أرحمُك ولا أملكُ أحيانًا إلا أنْ أعجَبَ مِنك كيف تنظرُ إليها، إنك إذا وقفتَ أمامَها تكونُ كالكاهِن إذا رَفعَ يَديه بالصَّلاةِ أمامَ وثَنِه.

فقال عنترةُ: وأنَّى لَكَ أنْ تُدركَ ما أُحسه وأنتَ لم تُقاسِ مثلَ حُبِّى؟

(٢٨) همَّ: نوى، عزم.
(٢٩) يُنَفِّس: يُفرِّج.
(٣٠) عتبه: لومه.
(٣١) 📖 مفازة: صحراء. الجمع: مفاوز ومفازات.
(٣٢) 📖 الفلاة: الصحراء، الجمع: الفلوات والفلا.
(٣٣) ألهج: أتحدث.
(٣٤) شغاف: المراد: أعماق، الجمع: شُغُف.

فقالَ شيبوب: مَا لِى والحُب يا عنترةُ؟ إنَّ النساءَ بَعضُهُنَّ مِن بعضٍ فليسَ لإحْدَاهنَّ عندى على الأخرَياتِ مَزِيَّةٌ. فما الَّذِى يحمِلُنِى على أنْ أرى فى واحدةٍ ما لا أراه فى سِواها؟ كُلُّهن يرقُصن ويُغنين ويضحكْن ويُثَرْثِرْن ويأكُلن ويشربنَ، وكُلٌّ منهنَّ تتطلع إلى مَن يُحبُّ غيرَها، لكى تَكيدَ لَها وتهزمَها، لا فرقَ بين واحدةٍ وأخْرى.

وسكتَ الغِناءُ عِندَ ذلك. فقالَ عنترةُ: ماذا كنتَ تقولُ يا شيبوبُ؟ أعِدْ علىَّ قولكَ فإنِّى لَمْ أكُنْ أسمعُهُ، امضِ فى حديثك يا أخِى، فإنه يقعُ على سمْعِى وقوعَ النَّدى على العُشبِ الأخضر. فقال شيبوبٌ جادًّا: إنك تُعذبُ نفسَك بهذا الوهم الذى يملِكُها، فأنت تَرى عبلةَ بعينٍ غطَّى الحبُّ عليها، وأخشَى عليكَ عاقبة هذا الوهمِ الذى يُضَللها.

فقال عنترةُ ساخرًا: ومِمَّ تخشى علىَّ؟ فقال شيبوب: نعم أَخشَى عليكَ، أخشَى عليك أهلَها وقومَها. إنك تَحسَبُ أنَّك منهم وهم لا يَرَوْن إلا أنك عبدُهم. أخشى عليك أباها مالكًا وأخاها عمرًا فهما لا يُضمِران لك حبًّا. عرفتُ ذلك ولمستُه، وسمِعتُه. أتظنُّ الناسَ لا يتحدَّثون عن حبِّك لعبلَة؟ أما سمعتَ الفتياتِ يتضاحكْنَ ويتغامزن(٣٥) وأنتَ تُنشِدُ؟ لقد كنتُ أراكَ وأراهُنَّ، وأسمعُك وأسمع أحاديثَهُن، وإنهنَّ ليَمْكُرْنَ بك، ويقلنَ فى خلواتِهن ما لا تسمعُ منهن، إن الناسَ يتحدثون عنك، وأنت تَحسَبُ أنك تُخْفى حبَّك فى ثنايا صَدْرك. فما اجتمع قومٌ فى نادٍ إلا ذكروها وذكروك، ولكنهم يذكُرونَك فى همس ليزيدُوا من النِّقمة(٣٦) عليك. يقولون إنَّك تقولُ الشعرَ فيها، ويقولونَ إنك قد جعلتَها بين الناسِ حديثًا، ولم أكنْ هازلًا وأنا أقولُ لك الليلة: إنَّ سرَّك يأبَى إلا أنْ يَذيعَ.

فقالَ عنترةُ فى شيءٍ من الغضبِ: وهل يُخيفُنى أن يعرفوا؟ لقد كُنت أخفى عن الناسِ ذكرَها خوفًا منِّى عليها لا خشية منهم على نفسى.

فقالَ شيبوب: وهل غرَّتْكَ تلك البسمَاتُ التى تَراها منها؟ إنَّها لا تَرى فيكَ إلا عبدًا مُطربًا، إنها لا تشتهى إلا حديثَك وشعرَك؛ لأنها فتاة معجبةٌ بنفسِها.

فتحرَّك عنترةُ فى غيظٍ وقال فى صوتٍ أجشَّ: بلْ تكذبُ يا شيبوبُ ويكذبُ من يقولُ مثلها. فقال شيبوب متردِّدًا: وإنَّهم ليقولون ما هو أقذعُ من ذلك فيك أنت، إذ تتطلعُ إليها. فقال عنترةُ فى صيحة مكتومة: لا يخفى ذلك علىَّ يا شيبوبُ، وقد سمعتُه بأذنِى منذُ كنتُ طفلًا. ولقد كانت الكلماتُ تقعُ على أذنى وقعَ الطعناتِ من الرِّماح المسمومة، ألا تذكر كيفَ كنتُ أثورُ بمَنْ يُعيِّرنى بأمِّى فأثبُ عليه، وأكادُ أفترسُه(٣٧) افتراسًا؟ ولكنْ مهلًا يا شيبوبُ، وكن أنتَ على الأقلِّ بِى رفيقًا، ولا تُعدْ هذه الأقوال على أذُنى. فقال شيبوب هازئًا: ليتنى كنت لا أحبك فكنتُ أمتنعُ عن كلِّ كلمةٍ تؤذِى سمعَك، ولكنِّى لا أقدرُ أن أحجبَ عنك ما عندى، إنى أشفقُ عليك من عبلةَ نفسها. فصاح عنترة: إنك تكذبُ! إنك تكذبُ! فقال شيبوب فى عنادٍ: لا بل أنتَ الذى لا تُريدُ أن تعرفَ الحقَّ، إنك تُحبُّها وهذا الحبُّ يحملُك على أن تخدعَ نفسَك عنها، ولا تريدُ أن تَرى ما أمامك. أتحسَبُ أنَّ عبلة ترضَى بك زوجًا؟

أتحسبُ أنها تختارُك على ساداتِ قومِها؟ لعَمْرى(٣٨) إنها لو سمِعتْ أنك تخطبُها لضحكتْ قائلةً: «لا أريدُ من عنترةَ إلا شعرًا».

وكاد شيبوب يمضى فى حديثِه لولا أنه سمعَ أخاه يُغَمغِمُ بلفظٍ لم يتبيَّنْهُ، فسكتَ حينًا ثم اتجه إليه قائلًا: أكنتَ تقولُ شيئًا؟

(٣٥) يتغامزن: المراد: يسخرن.
(٣٦) النقمة: العقوبة، الجمع: النقم. المضاد: النعمة.
(٣٧) أفترسه: أقتله.
(٣٨) لعمرى: وحياتى.

٧ حبٌّ عظيم تهون أمامه كل التضحيات:

فلم يُجِبْ عنترةُ بل مضَى فى غمغمتِه حينًا، ثم نطقَ بشعرٍ يمدُّ به صوتَه فى رِفقٍ ورقَّةٍ:

أُعَـاتِـبُ دَهـرًا لا يلِـيـنُ لِعَاتِـبٍ ... وأَطْلُبُ أمْنًا من صروف[٣٩] النوائبِ[٤٠]
ولَـوْلَا الـهَوى مـا ذلَّ مثلى لِمثلِهِمْ ... ولا رُوِّعتْ[٤١] أُسْدُ الشَّرَى بالثعالبِ
سَيذكُرُنى قومِى إذا الخيْلُ أقبلتْ ... تجولُ بها الأبطالُ من كُلِّ جانبِ

ولما انتهى من إنشَادِهِ اتَّجَه إلى أخيه قائلًا:

أحس كأن ثِقلًا يهبِطُ على صدْرِى، إنَّنى أَعذِرُك يا شيبوبُ، فلستَ تقدرُ على أن تنظرَ بعينى ولا أن تُحسَّ بقلبى، وقد تكونُ أسعدَ حظًّا منِّى، ولكنِّى لا أرضَى أن أكونَ إلا كما ترانِى. ماذا كنتَ تقولُ لى؛ فقد كنتُ عَنك لاهيًا؟

فقال شيبوب ضاحكًا: لن أعيدَ عليكَ قولى، إنك تهرُبُ منِّى بسمعِك كُلَّما ظننتُ أنِّى قد وجدتُ إليك سبيلًا؛ ولا أملكُ إلا أنْ أَعجبَ منكَ كلما رأيتُك تخضعُ[٤٢] لهذا الوهْمِ. أهذا أنتَ عنترةُ الذى يملأُ معامِعَ الحربِ هولًا[٤٣]؟!

فقال عنترةُ فى هدوءٍ: أظنُّك كنتَ تُخوِّفنى غضبَ مالك وابنه عمرو وقومِهم من عبس، إننى ساخطٌ عليهم جميعًا، ولستُ أخشى أن يكونوا كلُّهم علىَّ غِضابًا، لستُ أُبالى مالكًا ولا ابنَه ولا قومَه إذا هُمْ عَلِمُوا حُبِّى، فلقد كنتُ أكتمُه عنهم حتى لا يُصيبَ عبلةَ منهُ شىءٌ، أتخوِّفنى بغضَبِهم علىَّ أنا؟ وحَقِّ مناةَ وآلهةِ العربِ كلِّها ما أزِنُهم جميعًا بقطرةٍ من دمْعِ عبلَةَ إذا مسَّها ما يُبكيها. وسكتَ لحظةً ثم قالَ: إنها أَمَلِى فى الحياة، ولولا هذا الأمَلُ لما بقيتُ فوقَ الأرضِ يومًا.

فقال شيبوب هازئًا: إذن فاحرِقْ كبدَك فى تمنِّى ما لا سبيلَ إليه. فقال عنترةُ فى حُزنٍ: لستُ أملكُه حتى أصرفَهُ عنها.

٨ عبلة تتغنَّى بشعر عنترة:

وعادَ صوتُ الغِناء فجأةً وحملهُ النسيمُ كما كان يحمِلهُ من قبلُ متموِّجًا متدفقًا. فقال عنترةُ: اسمع يا شيبوبُ فإنها تُغنِّى.

وأصاخَ[٤٤] بسمعِه يُنصِتُ إلى الغناء ثم قامَ خفيفًا، وقال مبْتهجًا: ألا تحبُّ أن نقربَ من خبائها لنسمعَ؟ ثم جذبَ أخاه من يدِه، وسارا نحو الخيام، فلما اقتربَا حتى استطاعا تَبيُّنَ اللفظِ وقفَ عنترةُ فجأةً، وقَال فى صيحةٍ مكتومةٍ: لقد صحَّ ظنِّى يا شيبوبُ. أما تسمعُ؟ إنها تُغنِّى بشعرى. ثم اندفعَ مسرعًا بينَ الخيامِ، فرأى الفتياتِ والنساءَ فِى وسطِها يجلسْنَ فى حلقةٍ حولَ النارِ، ونورُ القمرِ يسطعُ باهرًا، فلما رآه النسوةُ صحْنَ: هَذَا عنترة!

وقعتْ عينه فى عَيْنَى عبْلة فقامت على استحياء مُسْرعةً إلى خبائها وبناتُ عمِّها يتعلَّقْنَ بأذيالها ليُمْسكْنَهَا...

وقَضَى عنترةُ الليلة مع أخيه على جانب الكثيب يُنشده مِن شعرِه، وقَلْبهُ يفيض بشْرًا.

(٣٩) صروف: مصائب. جمع: صَرْف.
(٤٠) النوائب: المصائب. المفرد: النائبة.
(٤١) روعت: خوفت.
(٤٢) تخضع: تستجيب.
(٤٣) هولًا: فزعًا، الجمع: أهوال.
(٤٤) أصَاخ: استمع.



مجمل الأحداث

١- قسوة عنترة على أمه.

٢- تَوَدُّدُ أمِّه إليه.

٣- عتاب شديد لأمه.

٤- اعتراف أمه له بالحقيقة، وهدوء ثورته.

٥- عنترة يطلب الصفح من أمه، ويُصِرُّ على أنْ يعترف به والده.

تفصيل الأحداث

١ قسوة عنترة على أمــه:

عاد عنترةُ معَ الرَّكْبِ إلى حِلَّةِ[1] عَبْسٍ، وكان يومُ عَوْدتِه مَوْعدَ العيدِ السَّنوى الذى تُقيمهُ القبيلة فى مَوسم الحجِّ فى شَهْرِ رجبٍ، ولكنَّ عنترةَ لم يكُنْ فارغَ القلبِ للعيدِ، فذَهبَ إلى بيتِ أمِّه أولَ شىءٍ بعدَ عودَتِه، وكانتْ زبيبةُ منصرفةً إلى غَزْلِها، فلما رأتْهُ داخلًا وثَبتْ قائمةً، وقالتْ له وهى تَفْتح له ذراعَيْها: مرحبًا بِك يا وَلدى، ما أشَدَّ شَوقِى إلى رؤيتك!

فذهب عنترة إلى جانب مِنَ الخِباء فرمَى فيه رُمْحَهُ وسَيفَه، وجلسَ على فَرْوةٍ والغضبُ يبدُو فى معالمِ وجهِه، فقالت له زبيبةُ: أبِكَ شىءٌ يا ولدى؟

فنظَر إليها عنترة ولم يُجِبْ، فاستمرَّت قائلةً:

أيَحْزِنُكَ شَىءٌ أصابَك؟ هل ألمَّ بك فى طريقكَ ما أغضبَك؟ هل لك أن تُفضِى إلَيَّ[2] بما يُحْزِنُك لعلَّى أستطيعُ أنْ أخففَه عنك، أو أحتالَ معك فى صَرْفِهِ؟ فقال عنترة:

- وما يُجْدينى أن أحزنَ أو أغضبَ؟

فقالت زبيبة وهى تُحاول أنْ تتماسكَ:

- أىْ ولَدى الحبيب، فِداك نَفسِى، لو استطعتُ أنْ أُذْهبَ عنك الحُزْنَ بِفَقْد عَيْنَىَّ لكان أحبَّ شىءٍ إلىَّ أنْ أفقد عَينَىَّ، ولو قدَرْتُ علَى أنْ أبذل حيَاتِى لكى أهبَ لك السـعادَة، لبذلتُها رَاضيةً سـعيدة. فخضَعَ عنترة وأطْرق حينًا ثم قال لها: لن يُجْدِيَنى ذلك كُلُّه شيئًا. أما كنت تعرفين أن الوليد الذى تضعينه سوف يعيش عبدًا؟ وكانتْ زبيبةُ تستمعُ إليه فى دَهْشة، مُتَعجِّبَةً مِنْ قوله وصَاحَتْ فى ألمٍ:

(١) الحلة: منازل القوم.

(٢) تُفْضِى إلَيَّ: تعْلِمنى وتخبرنى، المضاد: تكتم عنى.

– إنكَ تُقَطِّعُ نِيَاط قلبى[٣] يا عَنْترةُ. فماذا يحملكَ على كُلِّ هذا؟ ألستَ عنترةَ فارسَ عَبْسٍ؟ لقد عقِمَ النساءُ أن يَلِدْنَ مِثلَك. فَقهقه عنترةُ بصوتٍ مُخيفٍ وقال: دَعِى هذا، وخبِّرينى بالحقِّ عما جِئْتُ أسْألُكِ عنه، طالما سألتُك وأنت لا تُريدينَ أن تُجيبى، ولقد جئتُ إليك، لأسألَك مرةً أخرى أنْ تصْدُقينى حَديثَك. فقالت زبيبةُ مسرعة: سَلْنِى ما بدَا لك يا وَلدى، فأنا لا أحِبُّ أنْ أكْذِبَكَ. فقال عنترة فى مَرارة: لستُ أحتملُ أنْ أعيشَ بعد اليوم فى دُنْيا تُحيطُ بِى فيها هذه الأكاذيبُ، كأنها الإبلُ المسعورةُ، إذن فَتَعْسًا لهذا السيفِ الذى أحاربُ به أعداءَ عبْسٍ؛ لأنه يكون سَيفًا عَقُوقًا[٤].

٢ تودُّد أمِّه إليه:

فقالت زبيبةُ هادئةً: لقد عَرفتَ يا عنترةُ أنى لا أكذب، ولو أردْتُ أن أكذبَ على الناس جميعًا ما كذبْتُ عَلَى وَلَدى! أتحْسَبُ أننى أعرف أمرًا أُخْفِيه عنك؟ لقد طَالما تجَسَّستُ وأخبرتُك بما سمعتُ، وطالمَا تَبَسَّمْتُ لمن أمْقُتهم، لعلى أظْفَرُ منهم بحديثٍ أفضِى به إليك، ولقد كنتُ أذهبُ إلى عبلةَ وأمِّها وأخدمُهما لكى أعود إليك بكَلمة يَطيبُ بها قلبُك، ألستُ أذهبُ كلَّ يومٍ إلى سُميَّةَ امرأةِ شدادٍ، فَأُضْحِكها وأتملَّق[٥] (مروةَ) ابنتَها؛ لكى أحملَ لك ما تقولان وما يقول لهما نساءُ عَبْس؟

٣ عتاب شديد لأمـــه:

فصاح عنترة: لا تُراوغينى هذه المرةَ وقُولِى لى صِدْقًا، أما قُلْتِ لى يومًا إن شدادًا أبى؟ أما قلتِ لى إنى مِنْ صُلبِه[٦]، وإننى عنْترةُ بن شداد؟ ألا تذكرين يَوْمَ جئتُ إليك أبكى وأنا صبىٌّ أشكو إليك أنهم يُعَيِّرُونَنِى بك، فقلتِ: لا تَحْفِل[٧] بهم فإنكَ ابْنُ شدادٍ! فقالت زبيبةُ مُنْدفِعَةً: نعم أذكرُ ذَلكَ وهُو حَقٌّ. أىْ ولَدى إنى لا أزالُ أذْكرك طِفْلًا وأنتَ تَحْبُو مرحًا ضَاحِكًا تعبثُ بالكِلابِ والحُمْلان[٨] وتندفع عنيفًا كأنكَ فتًى يافِعٌ[٩]. وأذكركَ صَبيًّا تَجْبِذُ[١٠] فَصِيلَ الناقةِ كأنك قِطٌّ يُداعبُ فأرًا. وأذكركَ فَتًى تهزُّ الحَرْبَةَ كما كان يهزُّها خَالُك وجَدُّك، وهذا أنتَ قد كبرتَ يا ولدى حتى صِرْتَ فتى الفتيانِ وأشْجَعَ الشجعان، وفارسَ عبس كلِّها. ثم وضعتْ رَأسَها بين كَفَّيْها وأخذتْ تَبْكِى، فَلانَ عنترةُ، وقال يَسْتعطِفُها: إنَّ قلبى يتمزَّقُ، والغيظُ ينفَجِرُ بى. فقالت زبيبةُ: يا عنترة إن قلبى لا يَحملُ مِنَ الأحياء صورةً أحبَّ مِنْ صُورتك، وأراك تنظرُ إلىَّ كما ينظُرُ إلىَّ هؤلاء كُلُّهم - أبوك وأعمامُك وأبناء أعمامك. فصاح عنترةُ: تقولين أبى وأعْمامى؟ أتُعِيدينَ ذلك على سَمْعِى؟ فقالت زبيبةُ: نعَمْ أبوك وأعمامُك. ألَمْ أقلْ ذلكَ لَكَ من قبل؟ إنهم يقولون لى كلمَا رأونى: قُومى يا زبيبة إلى هذا الوعاء فاحمليه، أو إلى هذه الشاة فاحلبيها. وما كانَ ينبغى لَكَ أن تكونَ مِثْلَهم فلستُ أمامَ نَفْسى زبيبة الأمَة؛ إننى أنا الحُرَّةُ الحَبشيَّة (تَانَا) ابنة (مِيجُو)، ولن أكون سِوَى الحُرَّة (تانا) ابنة ميجو..! وكان عنترةُ يسمع قولها مُطرِقًا، ويَزْأر[١١] زئيرًا مَكْتُومًا، وتَعْتَريه بين حينٍ وحينٍ هزَّةٌ تَنْفُضُه نفضًا، فلما انتهت أُمُّه من قولها عادتْ إلى البكاءِ، فقال عنترة فى شبْه صَيْحَة:

– إنك تَقولين عن شداد وإخوته إنهم أبى وأعمامِى، ومع ذلك فإنَّ كُلَّ مَنْ يلقانى منهم لا يُسَمِّينى إلا عبدًا، ألَسْتِ أنتِ التى أتيتِ بى إلى الحياةِ وأنتِ أعْرفُ الناس بِمَوْلدى؟ وحَقِّ مناة لو كُنْتِ حــرةً...

(٣) نياط القلب: ما علق به إلى الرئتين.
(٤) عَقوقًا: عاصيًا.
(٥) أتملق: أتودد وأتقرب وأتضرع فوق ما ينبغى. المضاد: أخلص.
(٦) صلبه: ذريته.
(٧) لا تحفل: لا تهتم.
(٨) الحُملان: المفرد: حَمل، وهو ولد النعجة.
(٩) يافع: بالغ، الجمع: يفعة، أيفاع، يُفعان.
(١٠) تجبذ: تجذب.
(١١) يزأر: يصيح من صدره.

٤ اعتراف أمه له بالحقيقة، وهدوء ثورته:

وما كادَ ينطقُ بالكلمةِ الأخيرةِ حتى صاحَتْ به زبيبةُ فى حَنَقٍ (١٢):

– وَيْلَك يا عنترة، إنك فَظٌّ عنيفٌ ولا تُحِسُّ لى رحمة، إننى أمْقُتُ قومك وما يقولُون، وأمقتُ كبرياءَهُم وَجهلَهم، وأمقُتُ هذه الآلهةَ الصَّماءَ التى يُقْسِمُون بها. لقد عرفتُ قومًا غيرهم ودينًا غيرَ دينهم، واسمًا أحبَّ إلىَّ مِنْ هذا الاسْم الذى يُنادونى به. فقال عنترة: إنما يُحْزِنُك أنك زبيبةُ الأمةُ، يُحْزِنك أنكِ فى قَوْمٍ تكْرهِينَهُم وتكرهين آلهتَهم، اصدقينى القول، أأنا ابن شداد حقًّا؟! فقالت زبيبة بين شَهقَاتِها: إنَّكَ ابنُه. إنك ابنُه. وقد قلتُ لك ذلك مِنْ قَبل فى صِغَرك، وما كُنْتُ أكذبك. فصاح عَنْترةُ: أتقسمِين إنك صادقةٌ؟ فقالت زبيبةُ رافعةً رأسَها فى غضَب:

– قلتُ لك إنك ابنُه. ولنْ أقول لكَ إلا إنَّك ابنُه، فَصَدِّقْ إنْ شِئْتَ، أوْ كَذِّبْ، وافعلْ بِى ما بَدَا لكَ. فهدأ عنترةُ وصَمَتَ حِينًا، ثم قال:

أأكونُ ابنَه ويُبْعدُنى؟ أأكونُ وَلَدَه ويجعلُنى عَبْدًا، ويَرْضَى لى أن أكونَ بينَ الناسِ ذَليلًا؟ إنى أطْعَنُ أعداء عَبْسٍ؛ وأدفَعُ عنهم الذلَّ، وأعفُّ عن المغنم، ومع ذلك يُسَمُّونى عبدًا وأنا ابن شداد. أقْسِمُ بمناةَ لئن كانَ أبى لأحْمِلَنَّه على أن يَنْسُبَنى إلى نَفسِهِ، سَأضْربُ فى الأرضِ حيثُ تَقْذفُ بى، وسَأصَارِعُ الأسودَ وأنْتَزِعُ منها فَرائِسَهَا، وسَأقطع السبُلَ (١٣) على كُلِّ عابرٍ (١٤) وأسلبُ الأموالَ مِنْ كل مَالكٍ، ولن أستقرَّ حتى ألقَى مَنيَّتى ثائرًا حَانِقًا كما يَلْقَى الكلبُ العقورُ منيتَه. فتخاذَلَتْ زبيبةُ، ومَدَّت يديْها فى تَضَرُّعٍ وقالت: لا تفعلْ يا ولدِى، لا تفعلْ. لقد كنتُ أراوغُك ولا أقُولُ لك الكلمةَ التى كُنْتَ تسألنى عنها لأننى كنتُ أخْشَى هذا، كنتُ أخشَى أن تذهبَ إليه وتسألَه وتُخَاشِنَه (١٥) فلا تعودَ مِنْ ذلك إلا بتلفِ النفسِ، إنك مِنْه وَهُو منك، وقد وَرِثْتَ منه عُنْفَه وكِبْرياءَه. ولقد كنتُ أخشَى أنْ تصطدمَ به، وتقف له وجهًا لوجهٍ، فما تقابلَ اثنانِ مثلكُما إلا انْجلَى الموقفُ عَنْ هَلاكِ أحدِهما. وسكتتْ لحظةً، ثم قالت بصوت مُتهدِّجٍ (١٦): إنه أبوكَ يا ولدى، ولستُ أُنْكرُ أنه عزيزٌ عَلَىَّ، ولن أرضى أن أفْقِدَه كما لستُ أرْضَى أن أفقدَكَ، إنى أذكرُ يومَ رأيتُه كأنه كان بالأمس القريبِ، فاسْمَعْ حَدِيثى وَصَدِّقْنى:

كنتُ مع الرَّكْبِ أنا وَمَنْ مَعِى من نساءٍ وأطفالٍ لا نَكَادُ نرى ما أمامنَا من البكاء فقد جِئنَا إلى هذه الأرض مع قوم خَطَفُونَا مِن أهلنا كما تُخْطَفُ فِراخُ الطَّيرِ، وكانوا يُلْقون إلينا بقِطع من فضَلاتِ الطعام، فلا نَجِدُ لها شَهْوةً، والجوعُ يَقرِض أحْشاءَنا حتى كاد الموتُ يأتى علينا، ولا نَجِدُ لأنفسنا حيلةً إلا البكاءَ وتَمنِّى الهلاكِ، كان أخوك شيبوبٌ عِنْدَ ذلك لا يَزالُ طفلًا، وكان جَريرٌ ابنى لا يَزيدُ على عَشْرِ سنواتٍ. أوَّاه.

إننى لا أملك نَفْسى كلما تَذَكَّرتُ كيف كانَ وَلداى المِسْكِينَانِ وهما يَجُرَّان أقْدَامَهُما، والحجارةُ تُشَقِّقُها والدِّماءُ تَسِيلُ منها، وكانت الصحراءُ المهلكةُ تمتد أمامنَا إلى غيرِ نهاية، وأخيرًا هبطَ علينا أبُوكَ شدادٌ فى جَمَاعةٍ من عبس وأخذونا، وكنَّا نتوقَّعُ منهم الموتَ ونتمنَّاه لنَسْتريحَ مِنَ الحياةِ، ولكِن شَدَّادًا كان بِنَا بَرًّا، وكان ابناى له عَبْدَيْن على عَادةِ العربِ مِنْ أقْدمِ الأزمانِ، وقد أولدنى شدادٌ غُلامًا وَاحدًا هو أنت، هو أنت يا عنترة، هذه قِصَّتى يا عنترةُ أقولها لك، ولستُ ألوم أحدًا، ولا أحقدُ على أحدٍ، إننى لا أحْملُ إلا الولاءَ والوَفاء. فنظر عنترةُ إليها وقد هَدأتْ ثَائِرته وقال سَاخِرًا: إذَنْ فهو أبى؟ فقالت زبيبة فى جِدٍّ: قلت لك قِصَّتى. لم أنطقْ فيها بحرف غيرِصادقٍ، فإنى اليومَ لا أطمعُ فى أن أَستقبلَ الحياةَ. إننى رَاضيةٌ بما أنا فيه، لأننى لا أرَى لنفسى مَطمَعًا سِوَى أنْ أراكُمْ أمامِى، ولقد اعْترفَ بك أبوك يومًا وأنتَ فتًى صغيرٌ إذ طمِعَ بَعضُ بنى عبس أن يدَّعِيَكَ (١٧) فمنعَك قائلًا: «إنَّه وَلَدِى»، وكاد يُحاربُ أبناءَ عمِّه من أجلِك.

(١٢) حنق: غيظ. المضاد: هدوء، راحة.
(١٣) السُّبل: الطرق. المفرد: السبيل.
(١٤) عابر: سائر.
(١٥) تخاشنه: تحدثه بعنف. المضاد: تلاطفه.
(١٦) متهدِّج: متقطع مرتعش.
(١٧) يدَّعيك: يجعلك وَلَده.

٥ عنترة يطلب الصفح من أمِّه، ويصر على أن يعترف به والده:

وكان عنترة يسمع قولها شاخِصًا بِبصره (١٨) إليها، حَتى إذا ما فَرَغَتْ مَدَّتْ يديها نحوَه واقتربت منه، فمسحَتْ على رأسـهِ بيمينها، ثم تهانَفَت (١٩) وخَضَع عنترةُ لها فَأَحْنى رأسَه، وَوثَبتْ مِنْ عينيه دمعةٌ بادرَ إليها فمسحهَا، ثم تخلَّص منها برفقٍ وقال بصوت خافتٍ:

– لا عَليكِ يا أماه، لقد ألَنْتِ قلبى على الرجل بعد وَصْفِك إياه، وسَأمضِى إليه لأحدثَه فى أمْرِى، فلعلَّهُ يُلْحِقُنِى بِنَسَبِه ويُزِيلُ عنِّى مَعَرَّة (٢٠) الضَّياعِ، ولن أرْضَى بعدَ اليوم أن أبقَى فى بنى عبس رقيقًا وأنا مِنْ صُلْبِ شدادٍ.

ثـم وَثـبَ واقفًا وقامت أمُّه تتعلق به قائلةً: لا تفعلْ يا ولدى. لا تفعلْ ذلك أبدًا. هذا ما كنتُ أحاذرُ أن تفعلَ منذ كبرْتَ. إنه لَنْ يجيبك إلا بمَا يُجيبُ به العربىُّ عبدَه، إنك عبدُه لأنك منى، لا لأنك منه، تَرَيَّثْ فى الأمر حتى يَقْضِىَ الله قَضـاءَه ولا تَيْئَـس مِنْ رحمتِه. فقال عنترة فى صَرامة: لن أدعَ حديثَه حتى أرَى ما يَكُونُ منه، فدَعينى أذهبْ إليه، فإنى لن أثيرَ قلبَه. سوفَ أَخْضَعُ (٢١) له فى القولِ لعلّه يلينُ لى، ولستُ آيِسًا (٢٢) منه فإنى ألمحُ فيه أحْيانًا رِقَّةً ومَحبَّةً، ولا أملك قلبى من الميل إليه كلما لقيتُه. فقالتْ زَبيبةُ:

– تَرَفَّقْ بى وبنفسِكَ يا ولدى. إنه لَن يَرضَى أنْ يجيبَك خوْفًا مِنْ قومِه أن يُعيِّرُوه.

فقال عنترة فى دفعة: أيُعيِّرُهُ قومه بى؟ لن أقْعُدَ عن مُطالبتِه وإن كلفتنِى المطالبـةُ حياتى. فإما أنْ أكونَ ابنَه فَيُعْلِنَ ذلك لِمَلأ النَّاس. وإما أن أهِيمَ على وَجهى فى الأرض الواسعةِ ابتغاء حُرِّيتى.

فقالت زبيبةُ: تَريَّثْ يا وَلَدى.. بماذا أقسِمُ عليك حَتَّى تُطيعَنى؟! فنظر عنترةُ إلى وجهِ أمِّه وقال: أتَخْشَيْنَ علىَّ إذا لَجَجْت (٢٣) فى خطابه أنْ يُوقِعَ بى؟ لَنْ أرفعَ فى وجهه يدى يا أمى فَاطمئنى. لقد كُنْتُ دائمًا أخْضَعُ له وأنا أعُدُّهُ سيدى. وسأكون أشدَّ خُضُوعًا، وأنا أعرفُ أنه أبى. ثم تخاذَل وجلَس على حَجَرٍ عِنْدَ مَدْخَل البيت ووضع رأسَه بين كَفَّيه وغابَ فى إطراقه حينًا، وكـان يُردِّدُ أنغامًا خَافِتةً ويهتزُّ اهتزازًا شديدًا حتى جَزِعتْ أمُّه عليه، فاقتربتْ منه وجعلتْ تَمسـحُ رأسَه بيدها حزينةً، حتى مضتْ ساعةٌ ثم رفع رأسَـه، وجعلَ يتغنَّى بأهازيجَ مِنْ شِعْرِه، وأمُّه تنظرُ إليه فى رقةٍ وتستمعُ إلى غِنائِه. ثم وثبَ قائمًا فى عُنْفٍ، وذهب مُسْرعًا، ولم يَلْبَثْ أن غابَ بينَ البيوت وأهْوَتْ زبيبةُ على الأرضِ متهالكةً تنظرُ إلى أعقابِه وهى تَئِنُّ قائلة: وَلدِى! ولدى!

(١٨) 📖 شَاخصًا ببصره: فاتحًا عينه.
(١٩) 📖 تهانفت: تهيأت للبكاء.
(٢٠) 📖 معرَّة: عار.
(٢١) 📖 أخضع: ألين، المضاد: أقسو.
(٢٢) 📖 آيسًا: يائسًا، المضاد: آملًا.
(٢٣) لججت: تماديت.

الفصل الرابع

حِـــوارٌســـاخِـنٌ

مجمل الأحداث

١- عنترة فى حيرة وصراع.

٢- صدام بين عنترة وعمارة.

٣- محاولة عنترة أن يعرف حقيقة صلته بشداد.

٤- مراوغة شداد وهروبه من عنترة.

٥- إلحاح.. ورجاء.

٦- تهديد.. ووعيد.

٧- شداد يعترف بعنترة ابنًا له ويطلب تأجيل هذا الاعتراف.

٨- عنترة يستنكر ذلك ويقرر اعتزال قومه حتى يعترفوا به.

تفصيل الأحداث

١ عنترة فى حيـرة وصـراع:

كان الْبدْرُ قد طلع كاملًا على الحِلَّة، ونَشَر ألوانه على الفَضاءِ عندما خَرجَ عنترة مِنْ بَيْتِ أمه، وكانت الحِلَّةُ خالية إلا مِنْ عجَائِزِ الإماء والضُّعفاء مِنَ الشيوخ والنساء، فقد خَرجَ أهلُها إلى بَراحٍ واسعٍ فى ظَاهِرِ النَّجْعِ(١)، لِيَحتَفِلُوا بيوم مَنَاةَ على عَادتهم كُلَّ عَام.

وسار عنترةُ مسرعًا يَغرِزُ الرُّمحَ فى الرمال كأنه يَطْعنُها فى حِقْدٍ، حتى بلغَ البراحَ الفسيحَ الذى تعوَّدَت عبسٌ أنْ تجتمعَ فيه للاحتفالِ بالعيد. وكانت أصواتُ الغِناء والضَّحِكِ والصِّياحِ تَنْبعثُ(٢) إليه فى ضَجَّة يحملها النسيمُ إليه عَجيبةً غامضةً، كأنه لم يَشْهَدْ يومًا زَحْمةً مثلها. ولاحَتْ لِعينيه جذوع النَّخيل بارزةً فى حَلْقةٍ عَظيمةٍ كأنها سياجٌ، يَحْجُب عنه عَالَمًا صاخبًا مَرحًا يختلفُ عَنْ عَالمه الحزينِ العابس. وخَطَرتْ له فى سَيْره صورةُ عبلة، وخُيِّل إليه أنه يَسْمعُ صوتَ غنائها، أتكونُ عبلةُ هناك فى ذلك الجَمْع العابثِ اللَّاهِى لَا يَخْطرُ ببالها ما هو فيه مِنْ تَنْكيد(٣) وحُزْن عنيفٍ؟

أتكونُ عبلةُ مع هؤلاء تُضاحِكُهم وتُسَامِرُهم، وتُغَنِّى لهم وتَرْقص وتُصَفِّقُ مع المصفقين، ولا يَخْطِر ببالها أنه وَحْدَه يُناجِى يأسه وكَمَده(٤)؟! وطال عليه السَّيْرُ حتى بلَغ مَوْضِع الزحام،

ورأى الجموعَ الزاخرة(٥) تُحيطُ بالنيران فى حلقات، كُلٌّ مِنها تَضُمُّ بَطنًا(٦) مِنْ بطونِ القبيلة. ومَرَّ يَخْبِطُ الأرضَ برمْحِه بين الحلقات لا يَلْتفت إلى أحدٍ مِمَّن كانوا يتَواثبون إليه ويَدْعُونَه إلى الجلوس، حتى اقْترب من سُرادِق الملك «زُهَيْر بن جُذَيمة».

(١) النجع: مكان العشب والماء والإقامة.
(٢) تنبعث: تندفع.
(٣) تنكيد: هَمٌّ.
(٤) كمده: حزنه.
(٥) الزاخرة: المراد: الكثيرة.
(٦) بطنًا: المراد: فرعًا.

لم يكنْ عنترة يعرف ماذا يريدُ أنْ يفعلَ بذهابه إلى شُهودِ ذلك العيدِ، فإنه لم يَذهَبْ إلى هناك لِكَىْ يشربَ الخَمر مع الشَّـاربين، ولا لِكَىْ يتبارَى هُو والفرسانُ، ولا لِكَىْ يُنْشِدَ أشْعارَه كما اعتادَ أنْ يُنْشِدَ فى مثْل ذلك اليوم، لم تَكن نَفْسُه فِى ذلك اليوم خَاليةً مُستَبْشِرةً حتى يُشَارِكَ قَوْمَه فى مَرح العيد ولَهْوِه وبهْجَته، ولكنَّه مع ذلك قد ذهبَ إلى هناكَ وهو لا يدرى ماذا يَقْصِدُ مِنَ الذهابِ؛ أكانَتْ صُورةُ عبلةَ هى التى تَجْذبُه وتَدعُوه؟ أمْ كان ضِيقُ صَدْرِه يَدْفَعه إلى الهروب مِنَ الوَحْدَة لعله يَجِدُ فى زَحْمةِ العيدِ ما يشْغَله عَنِ التفكير فى هُمُومِه وآلامِه؟ أمْ ذهب يَرجُو أن يَلْقَى شدَّادَ بن قُرادٍ فى ذلك الجَمْع الحاشِدِ؟ لقد كانت صورةُ شداد هى التى تملأ صَدْرَه الحانِقَ (٧) منذ خرجَ مِنْ بيتِ أُمِّهِ، فكان يتَمنَّى أن يراه ليسْألَه عَمَّا كان يسأل أُمَّه عنه، ويَحْمِلَهُ على أنْ يعترفَ به ويجعَلَهُ ولَدَه صَريحًا.

ولما اقتربَ مِنْ سرادق الملك «زهير بن جُذَيْمة» مَرَّ بحَلقاتٍ مِنْ فُرسانِ الشباب فَهَبُّوا إليه وأحاطُوا به ليأخذوه إليهم، وتَنافَسُوا أيُّهم يَسْبِق إليه، ولكنه وقفَ ينظرُ نحو السُّرادِق العظيم ورُمْحُه مَرْكوزٌ فِى الرملِ، وارتَسَمتْ على وجهه ابتسامةٌ ضعيفةٌ فيها شَىْءٌ من السخرية وشَىْءٌ مِن الحَنَق، والتفت إلى الفرسان قائلًا: سوفَ أعودُ إليكم بعد تَحِيَّة سادتى.

ثم قَهْقه، وانفلت مِنْ بينهم مُسْرعًا مُتَرنِّحًا مُتَحَدِّيًا كأنه يَقْصِدُ قتالًا.

٢ صِدَامٌ بين عنتـرة وعمـارة:

ولمحَ أمام السرادق فتياتِ عبس وهُنَّ يَخْطِرْنَ (٨) فى رَقْصهِنَّ وغِنائهن فأدار بَصَره فيهن حتى وَقَع علَى عَبْلة وهى تَرْفَعُ يَدَيْها وتُغَنِّى فَخَفق قَلْبُه وتَمْتَم قَائلًا: أكل هؤلاء يَنْظرونَ إليها؟!

وسمعَ عندَ ذلك مِنْ ناحية السرادق اسمَ عبلةَ يتردَّدُ فى صَيْحَةِ إعجاب، فوثبَ وطَعَن الرملَ برُمْحه، فما هى إلا لحظاتٌ حتى كان على خطوة منها، فالتَفَتتْ إليه وتلاقتْ عَيْناهُما، فَتَبسَّمَتْ عبلة، ومَالت برأسها فى خَجَلٍ، وسَكَتَتْ عن الغناء.

فَعَلا الجَمْعَ صمتٌ عميقٌ مدةَ لحظَةٍ مَرَّتْ كأنها ساعةٌ طويلةٌ، وتعلَّقتِ العيونُ كلُّها بعنترةَ، وكان مَظهرُه يَنِمُّ عمَّا فى صدْره مِنْ غضبٍ وثورة، أما هو فلم يَبْتَسم لعبلةَ، ولم يُلْقِ إليها تحيةً، واندفع نحوَ السرادق، ولا يزال يَطْعُنُ الرملَ فى كلِّ خُطْوة يخطوها.

فلما بلغَ مَوْضِعَ الملك حَيَّاه قائلًا: عِمْتَ مَساءً مَوْلاى! فقال الملك: عِمْ مَساءً عنترةُ. لقد كنت أسألُ عنك مُنْذُ اللَّيلة. وكان الملكُ جالسًا على تَخْتٍ (٩) مَنْصوبٍ قد فُرِشَتْ عليه النَّمارق (١٠) والوَسائِد، وكان الأمراءُ والشيوخ وأبناءُ السَّادة يَجلسون مِنْ حَوْله ومن ورائه فى صُفوفٍ مُزْدحمةٍ، فوقَ طَنافِسَ (١١) مِنْ صناعةِ «المدائِن وشيراز» (١٢).

(٧) 📖 الحانق: الشديد الغيظ.
(٨) يخطرن: يتبخترن.
(٩) تخت: مكان مرتفع.
(١٠) 📖 النمارق: المفرد: النمْرقة والنمرق، وهى البساط أو الوسادة الصغيرة يُتَّكأُ عليها.
(١١) طنافس: المفرد: طَنْفَسة؛ وهى البساط.
(١٢) 📖 المدائن وشيراز: مدينتان فارسيتان.

فنظرَ عنترةُ إلى المكانِ فلم يَجِدْ به موضعًا يجلسُ فيه، ودار بعينيه فى ارْتباك كأنه يَبْحَث عن أحد فى الجلوس، وفيما هو فى حَرجِه سَمِعَ صَوْتًا يُنادى فى شيءٍ من السخرية قائلًا: ألا تجدُ لك مكانًا يا عَنْترة؟! فنظر نَحْو الذى يُخاطبُه، وكان (عِمارةَ بنَ زياد)، أجْملَ فِتْيانِ عبس، وأكرمَهم، وأعْلاهُم حَسَبًا وأشرفَهم نَسبًا، فقال عنترة فى حقْد: لو أنْصَفْتَ لَقُمْتَ لِى مِنْ مَكَانِك يا عمارة. فَهَبَّ عمارة مِنْ مكانه ثائرًا وقال: تَعالَ فَخُذْ مكانِى إذا اسْتَطعْتَ يا بنَ زَبِيبة. فقال عنْترةُ ثابتًا: لم تَأتِ بجديدٍ على الأسماع، فكل عَبْسٍ تعرفُ أمى كما تعرف أمَّك. ولكنِّى هنا أنا وأنت. فتعَالَ إلَىَّ إذا شِئْتَ يا عمارة. فَجَرَّد عِمَارةُ سَيْفَه، واندفع نحوَه، وأقبل عنترةُ عليه يَدُوس الجالسين للوصول إليه، وَهبَّ الناس مِنْ كُلِّ مكانٍ يحْجِزُون بينهما حتى لَقَدْ هبَّ الملكُ زهيرمِنْ مكانه صائحًا: تريَّثْ[(١٣)] يا عنترةُ، ويحَك يا عنترةُ!

ولكنَّ صَوْتَه لم يُسْمَعْ فى الضَّجة الشَّاملة، وانتقض نِظامُ الميدانِ كُلِّه، فاختَلَطَ مَنْ فيه، واضْطَربُوا وصَاح النِّساءُ والفتياتُ فى فَزع، ومَضَى حِينٌ[(١٤)] قبل أنْ يستَطيعَ شدادُ بن قرادٍ أنْ يَصِلَ إلى عنترةَ، ويُسْمِعَه صوتَه ويَأْخُذَه مِنْ يَده، وخَرج به من السُّرادقِ، ولكنَّ الجَمْعَ لم يَلْتئمْ[(١٥)] بعد ذلك، ولم تَعُدِ النفوسُ إلى صفائها، وانفَضَّ الناسُ فى وُجُومٍ عَائِدين إلى منازلهم، فلم يكنْ لهم فى ذلك اليومِ عِيدٌ. وذهبَ شدادٌ إلى جَانب عنترةَ يسيران فى صَمْتٍ حتى بلغَا شِعْبًا مِن شعاب الوادى المؤدى إلى الحِلَّة، فانْتَحيا فيه جانبًا عِنْدَ مَهْبط السَّيل، وجَلس شدادٌ على قِطعةٍ مَلْساءَ من الصخرِ، وجلس عنترةُ جَاهمًا[(١٦)] عند قَدميه، ووَضَع رُمْحَه تحت رِجْليه، وقطع شدادٌ الصَّمْتَ قائلًا: أجئتَ يا عنترةُ عَمْدًا لِتفْسِدَ علَينا ليلتَنَا؟ فنظر إليه عنترةُ نظرةً طويلةً، ثم أرْخَى عَينَيه وقال بصوتٍ عَاتبٍ: أتلُومُنى يا سيدى على ما كان يَنْبغى أن تَلُوم عليه غيرى؟ أتلومنى؛ لأننى عَبْدُك؟ فقال شدادٌ: أهذا جوابُ قولى؟

(١٣) تَريَّث: تمهل.

(١٤) حِينٌ: وقت.

(١٥) لم يلتئم: لم يعد كما كان.

(١٦) جاهمًا: حزينًا.

٣ محاولة عنترة أن يعرف حقيقة صلتــه بشــداد:

فقال عنترة: إن القول يَسُوقُ بعضُه بعضًا، وإنَّ فى نَفْسى لقولًا كثيرًا، لستُ أدْرِى كيف أبدأ فيه؟ وكيف أثنِّ؟ إنَّ عِندى لك قولًا هُوَ أوْلَى أن تَسْمعه مِنْ هذا الذى تَسْألنى عنه يا سيدى. فقال شداد فى دهشة: قُلْ ما بَدَا لك يا عنترة.

فقال عنترة: إننى لا أستطيع يا سيدى أنْ أنْكر فَضْلَك، فأنت فارسُ عَبْسٍ وشيخها، وأنت مَلاذُ(١٧) الخائف، ومُطعِمُ الجائع، ومُكْرمُ الضيفِ، ونَاصِرُ الضَّعيف، وقد حَدَّثتنى أمِّى عنك حديثًا طويلًا منذ كنتُ طفلًا. قال هذا ثم سكت، ونظر إلى سَيِّده شَدَّاد، قال الشيخ عابسًا: ما لك تَسكُتُ يا عنترة؟ امْضِ فى الحديثِ وقُلْ ما عندك. واستمرَّ عنترة قائلًا:

- حَدَّثتْنِى أمى عَنْ رَحْمتك بها وبِرِّكَ بأبنائها، ولكنها قالتْ لِى قَوْلًا لم أسمعْه مِنْك أنتَ يا سيدى، هذا ما يَضيق له صَدْرِى، وتَثُورُ منه نفسى.

فقالَ شدادٌ جَامِدًا: قالت لك إنك وَلدى! فقال عنترة ثابتًا:

- قالت لِى ذلك منذ كنتُ طفلًا، كنتُ إذا لعبتُ مع أطفالِ الحَىِّ سَبُّونى بأمِّى، وقالوا لى أقوالًا لم أفهمْها، فكنتُ أنتقمُ منهم وأضْرِبُهم، فلا يَزِيدُون إلا جراءةً، ويَجتمعون فى حلْقةٍ يُعيِّرونَنى ويَسْخَرونَ مِنِّى، وكنتُ كلما ضِقْتُ بهم ذهبتُ إلى أمى، فشَكوْتُ لها وسألْتُها عن أبِى لِكَىْ أفاخِرَهُم به، كما يُفاخروننى بآبائهم، ولكنها كانت لا تَزيدُ على أن تَبكىَ، ثم قالت يومًا إننى ابنُك، فَأحْسَسْتُ الكبرياءَ تَملأُ نفسِى، والقوةَ تَسْرِى فى عُروقى، فكان لا يَقْوى أحدٌ منهم على الوقوف أمامى، ولكنى كبِرتُ وعرَفتُ وخُضْتُ الحروبَ، وأردت أن أجدَ لى مكانًا فى عبس، فلم أجد أحدًا يُوسِّعُ لى مكانًا، فَعُدْتُ إلى أمى أسألها عن حقيقةِ ما قالت لى فى طفولتى، فكانت تُراوغنى وتُدَافعنى ولم تُعِدْ علىَّ قولَها إننى ابنُك حقًّا. ولكنها قَالَتْها لى اليومَ، فجئتُ إلى هنا، ولكنى وَاأَسَفاهُ لم أجِدْ لى بَيْنَ عَبْسٍ مكانًا. وجدْتُك أنت هناك تسمعُ وترى، وذلك الوَغْدُ(١٨) يَسُبُّنى بأمى. فقال شداد فى جمود: وماذا تريد بقولك هذا؟ فأجابَ عنترة فى دَفْعةٍ: لستُ أريد إلا ما يُريده الولدُ مِنْ أبيه إذا كان أباه حقًّا: أعَبْدُك أنا أمْ وَلدُك؟!

(١٧) 📖 ملاذ: ملجأ. (١٨) 📖 الوَغْدُ: الأحمق.

٤ مراوغــة شــداد وهــروبــه من عنتــرة:

فقال شداد: ألستُ أعطيك ما يعطى الأبُ ابنَه؟ ألستُ أكْرِمُ مَكانَك يا عنترة؟ ألستُ أدْخِلك بَيْتى، وأجْلسُك فى مَجْلسى وأرْكبك معى، وأناجيكَ إذا اعتزمتُ مع قَوْمى أمرًا؟ ألست أدعوكَ إلى حِمَاية الحِمَى، وإلى المشاركة فى الغَزاة؟ ألست أنْصُرك إذا ظَلَمْتَ، وأدفع عنك إذا ظُلِمْتَ؟ ألم تَقِف الليلة لِسيد شَباب عبس تُلْقِى إليه سِبابًا بِسبابٍ، واعتداءً باعتداءٍ، فلم أدَعْ يدًا تَصِلُ إليك؟ أترى فى عَبيدِى غيرَك مَنْ يُبَاح له ما يبَاحُ لك؟ فماذا تبتغى مِنِّى بَعْد ذلك إذا كنتُ أباكَ حقًّا؟

فقال عنترةُ فى رقَّة: لستُ أنكرُ فَضْلَك، فإنى إذن لَجَحُودٌ، إنك لَتُكْرِمُنى، ولا تَجْعَلُنى مثلَ هؤلاءِ العبيدِ الذين يَرْعَوْنَ إبلَك معى، ويَحْلُبون لك النِّياق، ويَحْملُون الطعام لضيُوفِك، وقد كنتَ تملك أن تجعَلَنِى مثلَهُمْ لو شِئْتَ، وتُذِلَّ تلك النفسَ التى تقولُ أمى: إنَّنى ورِثْتُها منك، ألا تقول لى مرةً إنك أبى؟ ألا تقولُ لى كلمةً تَقَرُّ بها عَيْنى[١٩]؟ قل لِى هذه الكلمة يا أبى حتى أسْمعَها مِن شفتيك أنت. ومَدَّ يديْه عِنْد ذلك فى ضَراعةٍ ونَظَرَ فى عَيْنِ مَوْلاه[٢٠].

فقال شدادٌ مُتَبَرِّمًا[٢١]: أما إنَّك لتَلِجُّ[٢٢] لِجَاجَةً لا أحْمَدُها. فقال عنترة معتذرًا:

– لست أحِــبُّ اللجاجةَ يا سيِّــدى، فاصْرِفْنى عنــك بكلمة أعرفُ بها مكانِى منك، فإذا لم أكُن ابنَكَ لَمْ يكنْ لى عليكَ من سَبيل، فى نَفْسِك، وفى هذه الذُّرِّيةِ التى تَخْرجُ مِنْ صُلْبِك!! فقال شدادٌ مُغْضبًا: حَسْبُك أيها الوَلدُ وأمْسِكْ لِسانَك. فقام عنترة ومدَّ يديه نحوَه قائلًا:

– أيها البطلُ، لَستُ أحِبُّ أن أغْضِبَك، ولكنى لا أرْضَى لك أنْ تَقذِفَ بِى بعيدًا عنك إذا كُنتُ مِنْ دَمِك، إنَّ لى فى الحياةِ حَقًّا كما أن لكلِّ رجل فى عبس حقًّا، فكيف أعيشُ فى قَيْد الرِّق إذا كنتُ ابنَ سيد الأحرارِ؟ وهل تستحقُّ الحياةُ أن أحْياها إذا هى خلتْ من الحريةِ؟ إنى أحبُّ الحرِّيةَ؛ لأننى أحبُّ الحياةَ، وأحب أن أعيشَ كالناسِ أقولُ «نعم» حينًا أو أقول «لا» إذا بدَا لى أن أقولَ «نعم» أو «لا»، أحبُّ أن أكون مِثْلَ سائِر الناسِ فى مِيزَانِهم، أعاشرُهم وأعاملهُم على أننى واحدٌ منهم. أترضَى لنفسِك أيها البطلُ أنْ تعيشَ عَبدًا؟

فصاحَ شدادٌ فى غيظ: أتقولُ لى ذلك؟ فقال عنترة: حَاشاك أيها البطلُ أن تَكُون عبدًا.

إنك لتكرهُ أن أقْرِنَ بين اسمِك وبين الرّق فى كَلمةٍ واحدةٍ، فكيف بِى وأنا أُرْغَمُ على أن أعيشَ كلَّ حياتى عبدًا؟ هَبْكَ وقعتَ يومًا فى أسرِ أعدائك فاتخذُوك عبدًا، وجعلُوا حولك الأغلالَ[٢٣] كما فعلوا يومًا بـ (مهلهل بن ربيعة) أما كنتَ تُؤْثرُ أن تُجاهِدَ فى سبيلِ حُريتك حتى تفوزَ بها أو تخرَّ صَريعًا[٢٤] فى جِهادك؟ فإذا كنتَ أبى، فإن دَمك الحُرَّ هو الذى يثورُ فى قلبى.

فَلانَ شَدَّادٌ، وقال عَاتِبًا: إنكَ تُجَرِّعُنى[٢٥] الغيظَ بما تُلْقِيه عَلَىَّ مِنْ هذا القولِ الذى يَنْطلِقُ إلى أذنى كأنه جَمْرٌ!! فقال عنترةُ فى رِقَّةٍ: قلتُ لك إنى لا أحبُّ أن أُغْضبَك، فلا تَغْضَبْ علىَّ إذا دَفَعنى يأسِى إلى مُواجهتك، لستُ أكرهُ أن تُوقِعَ بِى، وتَضَعَ سَيْفكَ فى صَدْرِى، فَتُذْهِبَ عنى تلك الشُّجونَ التى تُؤَرِّقُنى فى ليلى وتُذلُّنى فى نهارى، وتَجْعلُ حياتى بغيضةً إلى نفسى،

(١٩) تقربها عينى: أُسَرُّ وأرضى بها.
(٢٠) 📖 مَوْلاه: سيده.
(٢١) 📖 متبرمًا: ضَائق الصَّدْر.
(٢٢) 📖 تلج: تلح إلحاحًا غير محمود.
(٢٣) 📖 الأغلال: القيود.
(٢٤) 📖 تخرُّ صريعًا: تسقط قتيلًا.
(٢٥) 📖 تجرعنى: تسقينى.

لستُ أكرهُ أنْ أفارقَ الحياةَ على يَديك فأخلُصَ مِن هَذِه السُّبة التى يُردِّدُها الناسُ كلما وقفتُ بينهم عند أولِ غضْبةٍ يغضبونها، فهم إذا عَجزُوا عن مُفاخرتى بأنفسِـهم فَخَرُوا علىَّ بآبائهم وقالوا لى يا بنَ زبيبةَ. ولو عَرفْتُ أبى لفاخَرْتُهم به، وأسنَدتُ إليه ظَهْرى. حتى أنتَ يا شدادُ إذا غَضِبْتَ عَلَىَّ قَذَفْتنى بحُمَمِك[٢٦] وَدَعَوْتَنى عَبْدًا وقد كنتَ جديرًا بأن تكونَ أبعدَ الناس عن إذلالى إذا كنتَ أبى. فهل كَذَبتْ أمّى فيما زَعَمتْه إذْ قالتْ إنَّنى منك؟ فصاحَ شدادٌ فى غيظ: أما قلتُ لك أمْسِك لِسَانك؟

٥ إلحـــاح.. ورجـــاء:

فمضى عنترةُ فى عنادٍ: لك أن تُنْكِرَ أبوّتى، ولو فَعلتَ ذلك لَوَجَدْتُ عنك مَنْدُوحةً[٢٧] يا سيدى، فإنى أقدرعلى أنْ أضَع السيفَ فى صدرى حتى يَخرُجَ مِنْ ظهرى، أقْدِرُعلى أن أضْرِبَ فى الأرض، فلا يعرف أحدٌ مكانى، أقْدِرُعلى أن أهيجَ فى الناس بسيفى ورُمْحى كما يثورُالكلبُ العقورُأو النَّمِرُالثائرُ، ولكنى لا أقدرُعلى أن أدَعَك تمضى عنى بغيرأنْ تُجيبَ عن سـؤالى، فلا بُدَّ لك مِنْ إحدى خَصْلتَين: إما أن تُقرَّبأبوتى، وإما أن تُنكرَها. وكان شدادٌ مُطْرِقًا فى أثناء هذا الحديث مُترددًا، فنظرإليه عنترة وطَمِع فى لينه ومَضَى قائلًا: قُلْ لى أيها البطل، كيف أقيمُ فى قَوْم أقاتل أعداءَهم، وأحاربُ فى غَزواتهم وأحُوزُالغنائمَ مِنْ أجْلِهم، وأنا فيهم لا أزيدُ على أنْ أكونَ عَبْدًا مُسَخرًا؟ أأفْعلُ ذلك مَأجورًا بطعامِى وشرابى؟ أيكونُ سَيْفِى جَديرًا بأن يُصَاحبنى؟ وهَلْ أرضَى لنفسى أن أكون عبدًا لَك، تَملكُنى كما تملـكُ هذه الإبل وهذه الخيلَ؟ أأرْضَى بالذُّل فى نَفْسِى، وأنا قادرٌعلى حِمَاية غيرى؟ لئِنْ كنتُ قادرًا على أن أمْنَعَ حُرَمَكُم، وأذودَ[٢٨] عن حريتِكم فإننى لأشَدُّ الناس عُقوقًا[٢٩] لِنفْسى إذا كنتُ أحفظُ كرامتَكم وأهْدِرُكَرامتى!!

فرفعَ شدادٌ رأسه وقال: أتَمنُّ علينا بحمايَتِكَ؟ فأجاب عنترة:

لستُ أمُنُّ عليكَ ولا على أحد بحمايتى، ولكنِّى أقولُ الحقَّ الذى لا تستطيعُ أنتَ أن تُنْكِرَه، إنى أغزو وأتقدَّمُ الصفوفَ، لأقتحمَ جَيشَ العدو وأولَ الناس لِتسيروا ورائى، وإنى لأجْرُؤ على لِقاء كل فارس يتحاماه[٣٠] الأبطالُ مِنْ سادتكم، وإنِّى لأغْنَمُ الغنائم لكى تُقَسِّمُوها بينكم، فإذا مَنَنْتُم[٣١] علىَّ بجُزءٍ منها جَعَلْتُم لى نِصْفَ سَهْم، ورأيتُم فى هذا فَضلًا واعترافًا بِحَقى!! إنى لأبذُلُ ما فى يدى تكبُّرًا عن المال إذا حَرص عليه كرامُكُم، ولستُ أريدُ بهذا القولِ مَنًّا ولا فَخْرًا، بل هو الحقُّ الذى تعرفُه، فإذا كان هذا يُغْضبك، فقل لى إنك غَاضِبٌ منه، فلا أعود إلى ذكره، وحَسْبِى أن أباعدَ بَينى وبينكم، فلا أكَلِّفَكُم مِنْ أمْرى مشقةً، ولكنى أحبُّ منك أنْ تُجيبنى عما سألتُ؛ فإما أنْ تُنْكرَنى وإما أن تَعْتَرِف بى.. وكان شدَّاد فى أثناء هذا القول مُطرقًا وقد وضعَ رأسَهُ بين يديه صامتًا، فقام عنترة وَوَضعَ يده على كَتفِه فى رِفْقٍ وقال له: – أما زعمتَ مرةً أنك أبى؟ لقد حَدَّثَتْنى أمِّى فى ثنايا[٣٢] قِصَّتها أنك اعترفْتَ بى يومًا إذْ طَمِع أحَدُ بَنى عَبْسٍ فى أنْ يَحُوزَنِى، فَمَنَعْتَنى[٣٣] وقلتَ إننى ابنك، ألم تقُلْ ذلك يومًا يا سيدى؟ أما كِدْتَ تُقَاتِلُ أبناءَ عمِّك عندما أرادوا أنْ يَدَّعُونى؟ كَذِّبْ هَذَا إذا شئْتَ، بل كَذِّبْ نَفسَكَ إذا استطعتَ أن تقولَ كذبًا!!

(٢٦) 📖 الحمم: كل ما احترق من النار، **المفرد:** الحُممة.
(٢٧) مندوحة: عذرًا. **الجمع:** مناديح.
(٢٨) 📖 أذود: أدافع.
(٢٩) 📖 عقوقًا: ترك الإحسان أو عصيانًا. **المضاد:** برًا.
(٣٠) 📖 يتحاماه: يتحاشاه.
(٣١) مَنَنْتُم: تفضلتم.
(٣٢) ثنايا: خلال. **المفرد:** ثِنْية.
(٣٣) 📖 منعتنى: حميتنى.

٦ تهـديـد.. ووعيـد:

وما كاد شدادٌ يسمعُ هذه الكلمةَ حتى رفعَ رأسَه.. ووثَبَ قائمًا ولَمس مَقْبِضَ سيفه، وقال فى صَيْحَةٍ عنيفة: أتقولُ لى هذا القولَ أيها العبدُ الشَّقِىُّ؟ وحَقِّ مناةَ واللّاتِ والْعُزَّى ما صَبَرْتُ على أحد صَبْرى عليك، وأنتَ الليلةَ تُقَرِّعنى (٣٤) وتعَنِّفُنى!! ولستُ أدرِى ما الذى يَمْنعنى مِنْ سَفْك دَمِك أيها العاقُّ الجَاحدُ؟ فهل أطمعكَ حِلْمى عَنْكَ؟ أو قَدْ غرَّكَ أننى وَقفتُ دُونَك وأنت تَشْمَخُ بأنفِك على سادتِك؟ إنها لنقِيصَةٌ أُحِسُّها فى نَفْسِى أنْ أرِقَّ لك كلما هَمَمْتُ بأن أُغْمِدَ هذا السيفَ فى أحْشائك. فنزع عنترةُ سيفَه ورَماهُ بعيدًا عنه، وفتح جَيْبه (٣٥) فكشفَ عَنْ صَدْرِه الواسع، وقال بصَوْتٍ أجشَّ: هَلُمَّ (٣٦) فَأَغْمِدْ سيفَك فى صَدْرى، ولا تَكْتُمْ غَضبَك علىَّ، فإنك إن فعلت خَفَّفتَ عنى ثِقلَ ما أحمِلُ فى هَذِه الحياةِ. بل إنى أحَرِّضُكَ على قَتْلِى، فلستُ أريد أن أحيا فى العبُودية التى تُرِيدُنى عليها، اقتلْنِى وأنتَ هَادِئُ النفس؛ لأنك بهذا تُريحُنى من شقائى.

فأدار شدادٌ عينيه عَنْه، وعادَ إلى الصَّخرةِ، فجلسَ عليها صامتًا وهو يَلْهَثُ مما فى صَدْرِه من الغيظ، وبَقِىَ حينًا سَاكِنًا، ثم تحرَّك وقال بصَوْتٍ فيه رَنَّةُ العتاب:

٧ شداد يعترف بعنترة ابنًا له ويطلب تأجيل هذا الاعتراف:

ألا تعلمُ أن هذا الأمرَ لا أملكُه وحدِى؟ فصاح عنترة كَمَنْ أصابَ انتصارًا: إذن فأنت تَعْتَرِف بى. فقال شداد فى حُزْن: لستُ أنكرُ أنك ابنى. فصاحَ عنترة فى حماسةٍ: لقد قُلْتَها، هذا حَسْبى منك يا أبى قُلْ ما شئتَ بعدَها، وافعلْ ما بَدَا لك، فَأَنْتَ أبى. وذهب إليه فمالَ على رأسه فقبَّله، فقال شداد فى حُزْن:

– لقد عَلِمْتَ يا عنترَةُ أنى آثرتُك مُنْذ كُنْتَ طفلًا، وحَنَوْتُ عليك، وأمِنْتُ إليك، ولقد عَلِمْتَ كيف كنتُ أعادى أعْداءك حتى كادَ قومى يَنْبِذُونَنى، وكيف وقفتُ دُونك حتى باعدنى إخْوتِى وَبنو عُمومتى، ولكنى إذا اعترفتُ بك على ملأ الناس لم يَرْضَ أحدٌ منهم بك، ورَأوا أننى ألحقتُ بهم المعرَّةَ بانْتِسَابِك!! فقال عنترة: أتكُون المعرَّةُ أن تنْسُبَ إليهم عَنْترةَ؟ فأطرق الشيخُ وَاجمًا ووَضَع رَأسه بين كفَّيه وقال: أمْهِلْنِى يا عنترةُ حِينًا ولا تَقْسُ عَلىَّ، أمهِلْنى حتى أمهِّدَ (٣٧) لأمرى وأتوسَّلَ إلى قَصْدى ولن أفرطَ فيك أبدًا، فقد عَجزَ الأحرارُ عَنْ ولادةِ قرينك (٣٨). فقال عنترة فى نَغمةٍ سَاخِرة: فأنا إذن عَنْترةُ العبدُ حَتَّى يَرْضَى كُلُّ هؤلاء!

– فقال شداد: تَريَّثْ بى حتى أحْمِلَهُم على رَأْيِى، تَرَيَّثْ يا عنترة، ولا تَعُدْ بى إلى حديثك هذا، وتعال أحدِّثْك الساعةَ عن أمرٍ كنتُ أودُّ أن أبدأ به فى حَدِيثك.

فقال عنترة فى حَنَق (٣٩): وما شأنِى بالأحاديثِ يا سيدى؟ فقال شَدَّادٌ:

– إنه حديثٌ كنت أحِبُّ أن أفْضِىَ به إليك آنفًا. فقال عنترة فى صرامة:

(٣٤) 📖 تقرعنى: توجعنى باللوم والعتاب.
(٣٥) 📖 جيبه: جيب القميص: ما يُدْخَل منه الرأس عند لُبسه (طوقه).
(٣٦) 📖 هلم: اسم فعل أمر بمعنى تعالَ أو أقبِل.
(٣٧) أمهد: أسهِّل.
(٣٨) قرينك: نظيرك، الجمع: قرناء.
(٣٩) 📖 حنق: غيظ شديد.

٨ عنترة يستنكر ذلك ويقرر اعتزال قومه حتى يعترفوا بـه:

– لأكونَنَّ العبـدَ حقًّا إذا رضيتُ أو سمعتُ شيئًا. أمَا وقد أبيْتَ يا سيدى إلا أنْ أَبْقَى عَبْدًا حتى يَرْضَى قومُك، فلن أكونَ لك إلا عَبْدًا، سَأعْتزلُ هذا الحَيَّ، وسأقنع منك بما تُعْطى، سأذْهَبُ إلى مراعيك لأَسُوقَ إبلَك وأرعاها، سَأبْعُدُ عن الناس، فلا أجالسُ الأحرارَ أبدًا، وسأبْعُدُ عن الحروب، فلا أحملُ سيفًا ولا رُمحًا، ولكننى عرفتُ أنك أبى، فليسَ لى أن أتَّهم زبيبةَ أمى، وسَأرْضَى عَنْ حياتى، فلن أطعنَ قلبى بيدى، سأبقى حَيًّا، فإن لى أملًا لا يَزالُ يحمِلُنى على الحياةِ، ولن أحسَّ بعد اليوم ذُلًّا فى قرارة صَدْرِى، فأنا عنترةُ بنُ شداد بن قراد. وأخذ سيفَه ورمحه فى هُدوء، فقال له شداد:

– أذلـك الذى أسـمَعُه عنترةُ؟ فصاحَ عنـترة: نَعم هذا عنترة العبدُ، هذا عَبْدك يا شـدادُ بنَ قراد، سَـأذهبُ إلى البرِّيـة لأرْعَـى إبلَـكَ، وأحْلُبَ نياقَـك، وأدفعَ الذئبَ عَنْ غَنمِك، سَـأجعل رمحى عصًا أسُـوق بها الإبل، وسـأجعلُ سَـيْفى حِلْيـة أزيِّـنُ بهـا صـدرى، فلا شَـأن لى بالغـزو بَعْدَ هـذا، ولا ينبغـى لى أن أقفَ بَيْنَ الأحـرار!! وإذا بَدَا لك يومًا أنْ تُنادىَ عنترةَ فلا تَدْعُه إلا لِكـى يحملَ لك وعاء اللَّبن، أو لِكَـىْ يَنْحَرَ(٤٠) لضَيْفك جَزُورًا(٤١)، وسـتَجدُنى لكَ كما شئـتَ عبدًا خَاضِعًا، لن أردَّ قَلْبى عن محبتك؛ لأنه لا يُنْكِـرُ أبوتَـك، سوف أكـونُ عَبدَك، أخْفِى عنك طَرَبِى وغَضَبى، وسـوف أديـرُ عينـى إذا نظرتَ إلىَّ حتى لا تلمـحَ وَميـضَ(٤٢) حِقْـدِى، ولا أجْهَرُ بذاتِ نفسى تحت سـمعك ولا أتحدَّث عَنكَ إلا مِـنْ خلفِ ظهرك، فـإذا قَرُبْتَ مِـنِّى فلـن تَسْـمعَ مـنى إلا ألفـاظَ الوفاءِ والـولاءِ، هـذه شِـيَمُ العبـدِ، فـلا تنتظرْمِنِّى سـوى شِـيَم العبـدِ، واقْنعْ بهذا منِّى يا بطلَ عَبْس وكَـرِيمَها! يا سـيدى شـداد بـن قـراد، هَأنـذا أخضعُ لـك، وأدْعُو مَناةَ أن تَحْفظَك مِنْ سُـيوفِ الأعـداء، وهَأنـذا أُقَبِّلُ قدميك تَذلُّـلًا ومهانة.

ولما قال عنترة هذه الكلمة أهْوَى(٤٣) إلى قدمىْ أبيه فجأة فَقبَّلَهما، ثم نَهض مُسْرِعًا، وذهبَ كـأنه يَهْرُب مِنْ عدُوٍّ، حتى اخْتَفَى وراء التَّبة، وخرج نَحْو الصحراء، وجَلس شـدادٌ ينظر فى أعقابِه مَدْهوشًـا، ونورُ البدر السَّاطِع يُخَيِّلُ إليه أنه يَهِيمُ فى حُلْم ثقيلٍ!!

(٤٠) ينحر: يذبح.
(٤١) جزورًا: ما يصلح لأن يذبح من الإبل، الجمع: جزُر.
(٤٢) وميض: بريق.
(٤٣) أهوى: نزل.



مجمل الأحداث

١- حياة عنترة بعد اعتزال قومه وحالته النفسية.
٢- خبر أليم يأتى به شيبوب.
٣- ثورة عنترة على العبودية بكل صورها.
٤- تهدئة شيبوب لثورة عنترة.
٥- إصرار عنترة على محاربة كل من يقف فى طريق حريته وحبه.

تفصيل الأحداث

١ حياة عنترة بعد اعتزال قومه وحالته النفسيـة:

خرجَ عنترةُ من الشِّعب هائمًا على وَجْهِهِ لا يَدْرِى أين يَذهَب، ولم يَلْتفتْ إلى ناحيَة الحىِّ، كأنه كانَ يكرَهُ أن تقع عَينُه على الحِلَّةِ التى تضُمُّ الذين يُناصِبُونَه العداءَ[١] ويُضْمِرُون[٢] له الحسدَ، وَيتَنكَّرُونَ له. ولكنَّه تَذَكَّرَ عَبْلَةَ التى ناط[٣] بها أمَلَه، وعلّقَ عليها كُلَّ سعادتِه، فكانَتْ صُورَتُها تَمْثُلُ أمامَه بعيدَةً عنه بُعْدَ النَّجْم عن السَّارى[٤] فى الصحراء، ومضَى فى سبيله تحتَ نُور البَدْرِ الكامِل، تَسُوقُه قَدَماهُ إلى حيثُ يَبْعُدُ عن الموطن الذى لا يَجِدُ فيه إلا الهوانَ والغَيْظ والظلْمَ، وإن كانَ لا يَدْرِى إلى أين يذهبُ فى تِلك الأرض الواسعة، التى كانت تَبْدُو أمامَه مُمْتَدَّةً إلى غيرِ نهايةٍ، ولا يَسْمَعُ فى الليل الساكِنِ صَوْتًا سِوَى صَفيرِ بعضِ حَشَرا الأرض، أو نُباح كَلبٍ عند بَيْتٍ مُنعزِلٍ فى وادٍ بعيدٍ. وكان يُخَيَّلُ إليه مع هذا السكونِ أن يَقْتَحِمَ زِحامًا شديدًا صَاخِبًا مُضطربًا لما كان فى قَلْبِه مِنْ ثَورة عنيفةٍ. وما زال يَضْرِبُ فى شِعَابِ الصحراءِ تلكَ الليلَةَ، يُسْرِع فى خُطاه، ويَطْعَنُ الأرض بِرُمْحه فى حنَقٍ مع كُلِّ خطوةٍ يخطوها، حتى طلعَ عليه الفجرُ وهو مُشْرِفٌ على الوادى الفسيح الذى كانت إبلُ شَدَّادٍ تَرْعَى فيه، لطالما أقامَ فى ذلك الوادى مُنْذُ نَشأ، فكان فيه مَلعَبهُ ومَرْكَبهُ، وفيه مَوْضِع لَهْوِه وأسْمَارِه، كان عنترةُ منذ نشأ يَرْعَى إبل شداد فى ذلك الوادِى مع سَائِرِ العبيدِ، يُصارِعُهم ويُسَابِقُهم، ثم كان فيه وهو فَتًى يُبارى أَصْحَابه، ويُطارِدُهُم على مُتون[٥] الخيل، ففى تلك الأرض عرَفَ أوّلَ ما عرف مِنَ الحياة، وفى تلك الأرض شَهِدَ أوّلَ ما شَهِدَ مِنْ مبَاهجها، وأحسَّ أولَ ما أحَسَّ من هُمُومها. لقد كانت مناظرُ ذلك الوادى الفسيحِ منذ صِباهُ تُحرك قلبَه وتَمْلَؤُه بهجةً، وكانت مراعيه فِى الربيع تبعثُ فيه النَّشْوَةَ، وتُوحِى إليه بالغناء، وكان كلما ضاق صدره لا يجد ما يفرج كربته إلا أن يلجأ إليه، فيجد فى بَراحِه وجَمالِه وعُزْلته ما يُعِيدُ إليه اطمئنانَه، ويَرُدُّ عليه ثِقَتَه بِنَفْسه.

(١) يُناصبونه العداء: يظهرونه له.
(٢) يُضْمرون: يُخفُون.
(٣) 📖 ناط: علَّق.
(٤) 📖 السارى: السائر ليلًا. الجمع: سُرَاة.
(٥) متون: ظهور. المفرد: متْن.

ومُنْذ عادَ إلى ذلك الوادِى العزيزِ أقْبَل عليه يَجُولُ فى أَنْحائِه، يَجدُ أكبرَ العزاءِ فى صُحْبةِ الإبلِ والخيل، وفى الخُروجِ إلى صَيْد الوُعول (٦) والظِّباءِ، أو الإيقاع بالذئاب والضِّباع، ونَسِىَ أو كادَ ينسى أرض الشربةِ حيث خَلَّف قومَه مِنْ عَبْس فى حِلَّتِهم المضطربة بالأهواء، لولا خَطْرةٌ كانت تَخْطرُ على قلبه مِنْ عَبلة، فَيُحَاوِل أنْ يُبْعِدَها عن خياله، فلا تزالُ تُعاوِدُه حتى تغلبَه فَيسبَحَ مع الصُّورةِ الحبيبةِ فى عَالمٍ حزينٍ يُخَيِّمُ اليأسُ عليه.

هكذا قَضَى أيامَه ولياليَه هَائِمًا فى النهاربين الشِّعاب، سابِحًا فى الليل بين الشُّجون، وهو فى كُل لحظة تمرُّ به يزداد حِقْدًا على قومه الذين يَزْدَرُونه (٧)، وعلى أبيه الذى يَظْلِمُه ويُنْكِرُه ويأْبَى أن يَنْسُبَه إليه مع أنه يَعْترِفُ بِبنوَّتِه.

وكان فى صباحِ يومٍ من الأيام راكبًا على فرسه يملأ صَدْرَهُ مِنْ هواءِ الربيع العليلِ، وكانت الشمسُ الباسِمَة تُرْسِلُ شُعَاعهـا رَفِيقًا فوقَ المروج الخضراء، وكانت السُّحبُ تُزَيِّنُ السماء بِقِطَعٍ بيضاءَ كأنها قَطيعٌ مِنْ وَعْل نَجْدٍ العَصْماء، وكان العَرارُ (٨) يبسمُ بَنْوْرِهِ (٩) الأبيض، ويَبْعث مع النسيم نفحاتِه العَطرةَ.

وكان كُلَّما وقعت عينُه على مَنْظرٍ أنيق تَذَكَّر عبلةَ، ونازعتْهُ نَفْسُه أنْ يَنزل عَنْ كبريائه، ويَعُودَ إلَى الحِلة أو يُلِمَّ بها إلمامةً قصيرةً، لعله يفوز بنظرةٍ مِنها، أو يَنْعَمُ لحظةً بسماعِ صَوْتِها.

٢ خبرأليم يأتى به شيبوب:

وسمِعَ فى سَيْرِهِ وَقْعَ حَوَافِرِفرسٍ يأتى مِنْ ورائه مُسْرعًا فانْزَوَى فى رُكْن مِنْ جانبِ الوادى ليرى مَنْ يكونُ ذلكَ، فرأى بَعْد حِينٍ أخاه شَيْبوبًا يَقصد الرَّبوةَ التى اعتادَ أنْ يَجْلِسَ فوقها مُشْرِفًا علَى الوادِى، فهَمزَ فَرَسَه وانطلقَ نحوه وكان لَا يَتَوقَّعُ مَجيئَه، ووَقع فى نَفْسه أنه آتٍ إليه بشىءٍ خطيرٍ، ولما صَارقريبًا منه ناداه فى لَهْفَةٍ: مرحبًا بك يا شيبوبُ.

ثم وَثَبَ عَنْ ظهر الفرس وفَتَح له ذِراعيه. فأقبل إليه أَخوه شيبوبٌ وعَانقه فى شَوْقٍ، ثم قال له: إلى أين كُنْتَ سائرًا؟ فقال عنترة: لستُ أعرف لِنَفْسى غايةً أَقْصِدُ إليها. فِيمَ جِئْتَ أنتَ؟ فتبسَّم شيبوبٌ وقال: إنما جئت لأراك. فنظرإليه عنترةُ فى شَك وقال: إن وَراءكَ لأمرًا. فقالَ شيبوبٌ، ولا يَزالُ باسمًا: إنك لتُحِسُّ ما فى نفْسِى قَبْلَ أنْ أَنْطِقَ به. صَدقْتَ، فقد جِئْتُ إليك بحديث.

وسكتَ لحظةً ثم قالَ: كان الحىُّ بالأمس يَزْخَرُ (١٠) بِمَنْ فيه. فقالَ عنترةُ فى صَيْحةٍ مكتومةٍ: فَهل مِنْ جديدٍ؟ فقالَ شيبوبٌ: ونَحرَ مَالِكُ بنُ قراد عَشْرَ جُزُرٍ (١١). ثم سكتَ، فصاحَ عنترةُ: امضِ، وما قصةُ هذه الجُزُرِ؟ فقالَ شيبوبٌ: كانتْ وليمةً عظيمةً لعمارةَ بنِ زيادٍ. فصاحَ عنترةُ فى صوتٍ مخْنوقٍ: عمارةُ بنُ زيادٍ! فقالَ شيبوبٌ: ذَهَب عمارةُ يَخْطبها. وكأنَّ شيبوبًا أَلْقمَه بهذا اللَّفظ حَجرًا. فَلَمْ يَنْطِق عنترةُ بجوابٍ، بل وقفَ ينظرُإلى الفَضاء مَبهوتًا، فقال له شيبوب فى رِفْق: امْلِكْ نَفْسكَ يا عنترة. لقد كُنْتُ مِنْ قبلُ أُحَدِّثُك فى خِفَّةٍ وفكاهة؛ لأنى أعرف كبرياءك ولا أُحِبُّ أنْ أثيرها، ولكنى آتٍ إليك اليوم لأحَدِّثَك جِدًّا، فإنى لا أرى مجالًا لخفة ولا فكاهة. أحِبُّ أنْ أحدثك حديثًا يَقْطُرُ جِدًّا! فأطرقَ عنترةُ ساهمًا، وجعل يَخْرِق الأرضَ بِرُمْحِه كَعادتِه.

(٦) الوعول: المفرد: الوعل، وهى من المعز والشياه الجبلية.
(٧) يزدرونه: يحتقرونه. المضاد: يقدرونه.
(٨) العرار: نبات طيب الرائحة.
(٩) نَوْره: زهره. الجمع: أنوار.
(١٠) يزخر: يموج ويضطرب. المضاد: يهدأ.
(١١) جُزر: المفرد: جزور، وهى الناقة.

فقال له شـيبوبٌ: إذا شئتَ مَضَيْتَ مَعِى إلى ناحيةٍ فإنى مُتْعبٌ مِنَ الركوب. وذهبَ نحو جَانِبِ كَثيبٍ فَمَهَّد لنفسه مَجْلسًا، وذهبَ عنترةُ وراءَه يَسيرُ بَطيئًا. فلما اطمأنَّ بهما المجلس قال شيبوبٌ: هذا مالكُ بنُ قُراد يريدُ أنْ يختارَ لابنتِهِ زَوْجًا. وهو مِنْ هؤلاءِ العربِ الذين تَعْرفُهم. فلا مَفَرَّ لهم مِنْ أنْ ينظُروا إلى الناسِ بأعينهم لا بأَعيُنِ غيرهم. جئْتُ أسعَى إليك بهذا النبأ قبل غيرى حَتَّى لا تَرْكَبَ الشَّطط[١٢] فى أَمْرِك.

فقال عنترةُ: وأَىَّ شَططٍ تَعْنِى؟ فقال شيبوب: لقد عَرَفْتُ أنك سوف تَكْرَه فِعْلَ مالك وأنك قد تُطِيعُ هذا الوهمَ الذى يَضِلُّ بك فَتَحْسَبُ أنه قد يَرْضَى بكَ لابنته زَوْجًا. فقال عنترة فى صَوْت أجشَّ: دَعْ ذلك وقُلْ لى ما تريدُ أنت، لا تُحَدِّثْنِى عن نَفْسِى.. فقال شيبوب: لم أجِئْ إلَّا لأُحَدِّثَك عَنْ نَفْسِك، وإنى أُعيدُ عليكَ ما قلتُه لك مرةً بعد مرَّةٍ. إنك تَخْدعُ نفسك يا بن أُمِّى وتَجْرى وراء سَرابٍ تريدُ أن ترْوِى به ظَمَأك. فهلْ لكَ أَنْ تُفكِّر فى أَمْرِكَ وتَحْكمَ فى الأمور بِعَقلِك؟ فَأطرَقَ عنترةُ حزينًا ثم قال: إنكَ تريدُ أن أَحْكمَ بِعَقْلِى وَأنْ أُفَكِّر فى أَمْرِى، تريدُ أن أَعْتَرفَ بأننى عَنْتَرةُ العبدُ الذى لا يَلِيقُ به أنْ يَتطلَّع إلى عبلة. فقال شيبوب فى رِقَّة: إنكَ بغير شَكّ فارسُ عَبْسٍ، وإنك لَجديرٌ بأن تكون سَيِّدَها، ولكنَّ قضاءَك قد ظَلَمك، وجعلَك حيثُ أَنتَ، ولَسْتَ بأول رَجُلٍ ظَلَمَتْهُ الحياةُ!

٣ ثورة عنترة على العبودية بكل صورها:

فانتفض عنترة قائلًا: وما لِى أَرْضى بظلم الحياةِ يا شيبوب؟ وما الذى يُقَيِّدُنى حتى أُقيمَ على الخَسْف[١٣]، وأرضى بأن أبقى عبدًا؟ وما الذى يحملنى على أن أحْكُم بعقلك أنتَ فى أَمْرِى؟ ليس الذى تُريدُ مِنِّى حُكْم عقلى أنا يا شيبوب بل هُوَ حكمُك، أما أنا فإنِّى لن أَرْضَى لِنَفْسى إلا أن تَكُونَ حيثُ تَرْضَى. فقال شيبوبٌ هادئًا: وماذا تَمْلِكُ يا أخى؟ هل تَمْلِكُ أنْ تَحْجُرَ على مالكٍ حتى لا يُزوِّج ابنتَه بِمَنْ شَاءَ؟ فصاحَ عنترة: ولكنِّى أُحِبُّ عبلة. أُحِبُّها حُبًّا ملك علىَّ عقلِى فلا أُفَكِّر إلا فيها، ولا أحيَا إلا مِنْ أَجْلِها. لقد قَنِعْتُ أولَ الأمر بالرِّق؛ لأننى كنتُ قريبًا منها، ولقد رَفَضْتُ اليوم ذلك الرِّق؛ لأنه يُبْعِدُنى عنها. أحبُّ عبلةَ حُبًّا لا يستطيعُ مَالكٌ ولا غيرُ مالك أنْ يَنزِعَهُ مِنْ بَيْن ضُلوعِى، ولن يستطيعَ أحدٌ أنْ يجعلنِى أَرْضَى بأنْ يَتَزَوَّجها غيرى.

٤ تهدئة شيبوب لثورة عنترة:

فقال شيبوب: إذَنْ فحَدِّثْنِى ماذا أَنْتَ فاعلٌ لِتَحُولَ بين مالك وبين رِضَائه بعمارة؟ فقال عنترةُ فى مرارةٍ: لستُ أَدْرِى بِمَ أحدثك يا شيبوبُ، فأنت تُذَكِّرُنى بكلِّ آلامِى وكُل شَقائى؛ تذكرنى بأنى لا أَزيدُ على أنْ أكون عبدًا ولا أستطيع أنْ أمحوَ صُورتى التى تقعُ فى عيون قَوْمِى، تذكِّرُنى بأننى لنْ أَجِدَ أبًا يَنْصُرنى، ولن أجِدَ نسبًا يُمهدُ لى سَبيلى، بل إنى لن أجد المالَ الذى يُعيننى على بَعضِ أمرى، ولكنى يا شيبوبُ مع هذا كُلِّه أملك شيئًا واحدًا وهو نَفْسِى التى لا تَرْضى، وسأكونُ فى الموضع الذى أرْضاه وإن كان ذلك قَسْرًا[١٤]، إنك تُحدثنى عن مَالكٍ، وعن قَوْمِى، فَلِمَ لا تُحَدِّثنى عن عبلة نفسها؟ إنكَ لَم تَعْرِفْ حقيقةَ نَفْسها كما عرفتُها، فلا تُواجِهْنى بهؤلاءِ، فلستُ أعرفُ مِنْهم أحدًا، وإنما أُحِبُّ عبلة وأعرفها.

(١٢) 📖 **الشَّطط**: المخاطر.
(١٣) 📖 **الخسف**: الذل، الظلم، **المضاد**: العزة.
(١٤) 📖 **قَسْرًا**: قهرًا، جَبْرًا.

فقال شيبوب فى عنادٍ: أتَحْسبها ترضَى بك، وتَدَعُ عمارةَ بن زياد؟ فتحرك عنترة فى غَيْظٍ وقال: إنك تتحدَّث كأنك أَحَدُ أعدائى. فقال شيبوب فى رِقَّةٍ: لا تَذْهَبْ بك الظنونُ يا عنترةُ مَذَاهِبَها، فإنك تعرفُ مِقْدارحُبِّى لَك، وحِرْصى على خَيْرك، وَدَعْ عبلة، وقُلْ لى، أَتَحْسَبُ مالكًا يُزَوِّجُ ابنته لكَ، ويَدَع عمارة بن زياد؟ ولو كانَ أبو عبلة غَيْرَ مالك، أتحسبُ أنه يفعلُ هذا؟ إنكَ لَنْ تَجِدَ أحدًا غيرى يُحَدثك بِمثل قَوْلى، ولكنِّى لا أحِبُّ أن أكتمَ عنكَ مَا فى نَفْسِى. وكان عنترةُ يحاولُ أن يُمْسِك غَضَبهُ، ولَمح شيبوبٌ علامَاتِ ذلك الصِّراع بينَه وبينَ نفسه، فقال له فى عَطْفٍ: لا تَحْنَقْ عَلَيَّ لما أقولُ يا أخى، إنى أَشَدُّ حِرْصًا عليك مِنِّى على نَفْسِى، ولو كانَ الأمرُلِى لعرفْتَ أنَّ قَدْرَكَ أعلَى مِنْ كُلِّ قَدْر، فأنتَ عندى أكرمُ مِنْ هؤلاء جميعًا، وأَشْهَمُ[١٥] نَفْسًا، وإنكَ لحَامِى حِمَاهم، وسيد فُرْسانِهم، وأنت أَجْمَل عِنْدِى مِنْ أَجْمَلهم.

فقال عنترةُ وقد ألانه قَوْلُ أخيه: لستُ أَشكُّ فى مَودَّتك وحِرْصِك على خَيْرى. لقد صَدَقْتَ إذْ قُلتَ إنَّ مالِكًا لا يُلَامُ على رِضَاه بعمارةَ زوجًا لابنتِهِ، ولو كُنتُ فى مكانه لما رَضيتُ إلا بِمَا يَرْضَى، ولكنْ ما بالُ قَلْبِى وعَبْلَةَ؟ إنى أُحبُّها ولا أَقْدرأَنْ أحيا بغيرها، ولو ذَهَبَتْ لغيرى لكانَ فى ذلك قَتْلِى، فليسَ لى إلا أن أركب الوَعْر[١٦] وأنْ أُقْدِمَ على كُلِّ خَطرٍ؛ إذ ليسَ فى كل ذلك إلا الموتُ، وهو فى كُلِّ حالٍ ينتظرُنى. وصمت لحظةً ثم قال: وما بالُ شداد يَأْبَى علىَّ كَرامَتِى؟ لقد علمتُ أنه أَبِى، لقد قالهَا لى مُنذ يَوْم مناة. فقال شيبوب: أَلقِيتَه فِى ذلك اليوم؟! فقال عنترةُ: نعم لقِيتُه، ثم خرجتُ بعد أنْ قَضَيْتُ معه صَدْرالليل.

فسكتَ شيبوب حينًا ثم قال: لقد كنتَ يومَ مناة عَنيفًا. فقال عنترة فَاتِرًا: وما الذى لم يُعْجِبْكَ مِنْ أَمْرى؟ فقال شيبوب: أَمَا تذكرُ ساعةَ وقفتَ أمامَ عَبلة؟ أما تذْكر كيفَ نظرتَ إليها وكيفَ نظرتْ إليكَ؟ أما تذكرأنها سَكَتَتْ عن الغناءِ، وكيف خَيَّم الصمتُ على الجَمْعِ فى الميدانِ؟ فقال عنترة: أذكُرُذلك كله يا شَيْبوبُ كأننى لا أَزالُ فيه، ولكنْ ما بَالُك تُذَكِّرُنى بهذا؟

فقال شيبوب: أُذَكِّرك به؛ لأننى سمعتُ حديثَ الناسِ فى جَهْرِهم وهَمْسِهم. سمعتُ ما قَالُوه على المَلأ وتَجَسَّسْتُ على ما قَالُوه فى الخفاء. لقد باتَت عبْسٌ تتحدث عنكَ وعن عَبْلَةَ، وما زالت تتحدث عنك وعن عبلة، لقد كانوا من قبل يسمعونَ شعركَ فيقولُ بعضُهم: «هذَا فى عبلةَ»، ويقولُ بعضُهم: «هذَا فى غيْرِعبلة»، ويَزْعُمُ آخرونَ أنَّه من عبثِ الشعراءِ، ولكنَّك فى ذلكَ اليومِ قلتَ للجموعِ: «إنها عَبْلَةُ، إنها عَبْلَةُ».

فأطرقَ عنترةُ حتى ظَنَّ شيبوب أنه قد قَسَا عليه فقال: ولكنِّى بَعُدْتُ بِكَ عن مَسِيل القول يا عنترة، قل لى كيف حَدَّثْتَ شدادًا يوم مناة؟ فقال عنترةُ فاترًا: حَدَّثْتُه واعترف بى. فقال شيبوب: ولكن أَتَحْسَبُ أنه يُنْصِفُك؟ أتحسَبُ أنه يَعْترفُ بكَ على مَلأ عَبْسٍ؟

(١٥) أشهم: أعزُّ. (١٦) 🕮 الوَعْر: الصعب.

٥ إصرار عنترة على محاربة كل من يقف فى طريق حريته وحبِّه:

فقال عنترة: لَئِنْ لَمْ يُنْصِفْنِى وأنا ولدُه لكَان لِى ظَالمًا. ثم جعل يَنْكُت[١٧] الرملَ بِرُمْحِه فى حَنق!!

فقال شيبوب: أراكَ لا تَدعُ هذا الوهمَ، وإنْ كَلَّفَكَ رُكُوبَ كُلِّ وَعْرٍ. فقال عنترةُ: إذا كنتُ بين قَوْمٍ لا يَنْظُر كُلٌّ منهم إلا إلى نَفْسِه فلا حرَجَ عَلَىَّ إذا نظرْتُ إلى نَفْسِى. إنَّ هؤلاء يَدْعُونَنى إذا اشْتَدت حَوْلهم الكُروبُ، ويُلْقُونَ إلىَّ بالسَّيفِ لأَحْمِى حِماهُم، فَلأحَارِبَنَّهُم بهذا السيفِ انْتصافًا لنفسى. لأحَارِبَنَّ شدَّادًا إذا ضَنَّ عَلَىَّ باسمه، ولأُحارِبَنَّ مالكًا إذا وقفَ بَيْنِى وبَيْنَ حبِّى، ولأُحاربنَّ عمارةَ إذَا تجرَّأَ على أنْ يَسلُبَنى حَيَاتِى، ولأُحَارِبَنَّ، لأحاربنَّ!

وصمتَ لحظةً ثم وثَب قائمًا وقال: هَلُمَّ يا شيبوب فإنى عائدٌ إلى الحَىِّ معك. إننى لَنْ أُطيقَ البقاء هنا. ولم يَستَطع شيبوبٌ أن يعيدَ عليه القولَ فقد انطلقَ بجواده ولم يجِدْ شيبوب بُدًّا[١٨] من أنْ يركب ويَلْحَق به عائدًا إلى منَازل عَبْسٍ!!

(١٧) ينكت: يغرز.　　(١٨) بُدًّا: مفرًا.



الفصل السادس
البطلُ الحـرُّ

مجمل الأحداث

١- عنترة يقاوم رغبته فى القتال مع قومه.
٢- عنترة وتأملاته الحزينة.
٣- غارة وحشية على قومه.
٤- شداد يستنهض عنترة ليدافع عن قومه.
٥- سخرية عنترة من قومه.
٦- الحرية لا توهب.
٧- عنترة يُقْدِم على القتال بطلًا حرًّا.

تفصيل الأحداث

١ عنترة يقاوم رغبته فى القتال مع قومه:

أوْقد عنترةُ فى الحِلَّة نارَ الشَّحناءِ(١) منذ عاد إليها، فما كان يَمُرُّ به يومٌ بِغَيرِ أن يثير خصامًا، وأنْ يُهَيجَ قتالًا بينه وبَيْن آل عمارة بن زياد، وخرجت عَبْسٌ لقتال طَيِّئٍ فلمْ يخرجْ مَعَهُم، وسارتْ عبسٌ معَ الملكِ زهيرِبنِ جذيمةَ فلم يَتْرُكوا فى الحَيِّ إلا طَائِفة قليلةً لحراسةِ المنازِل، وكان أميرالحامية شـدَّاد بنَ قُرادٍ. ورأى عنترةُ الفرسَان وهَمْ يَخرجُونَ مِنَ الحيِّ مُتَّجِهين إلى أرض طَيِّئٍ، وكان قَلْبُه يثور عليه، ويَتَحرَّقُ مِنَ القُعود عن القتالِ، ولكنَّه مع ذلك قاومَ مَيْلَه، وأَصَرَّ على البقاءِ تَشَفِّيًا(٢) مِنْ قومه الذين لا يُنْصِفُونَه، ولا يُزيلون عنه وَصْمةَ(٣) الهوانِ، فكان يخرجُ كلَّ يوم يَجُول فى الصَّحراءِ ليُفَرِّجَ عن نفسِه كُرْبَتَها، ثم يَعُودُ فى المساءِ إلى خَيْمتِه، ليقضِيَ بها الليل فَتضِيقُ نفسُه مِن وَحْشتِهِ(٤) وكَرْبِه، فيخرجُ إلى الفضاءِ فى ظلامِ الليل أوْ فى نُورِالقمرِ، لعلَّه يجِدُ فى انطلاقِ الجَوِّ ما يُخففُ مِنْ وحْشَتِه وكَرْبه.

ولم يستطعْ أنَ يَلْقَى عبلةَ طَوالَ تلكَ الأيامِ، فإنها مُنذ أن خُطِبتْ إلى عمارةَ ضُرِبَ عليها الحِجَابُ(٥)، فكانتْ لا تَخْرُجُ إلى مَوْرِدِ الماءِ كما اعتادَتْ أن تخرجَ، ولا تزورُأترابَها(٦) فى بيُوتهن، بل كُنَّ يأتين إليها لزيارتها؛ حتى لا يراها عنترةُ، هكذا أمَرأبُوها مالكٌ وأخُوها عمرٌو قبل أن يَرْحَلا مَع الجيشِ، فقد أَنِفا(٧) مِمَّا سَمِعَا مِنْ أحاديثِ الناس عنهَا.

(١) الشحْناء: البغضاء.
(٢) تَشفِّيًا: انتقامًا، المضاد: تسامحًا.
(٣) وصمة: عيب أو عار.
(٤) وَحْشتِه: همه.
(٥) ضُرِب عليها الحجاب: المراد: لم تعد تظهر على الرجال.
(٦) أترابها: مثيلاتها فى السن، المفرد: تِرْب. المراد: صديقاتها.
(٧) أنِفَا: كَرِهَا.

٢ عنترة وتأملاته الحزينة:

وخرجَ عنترةُ يومًا على عادته ليجُولَ جولته، فوقَفَ على رَبْوةٍ ينظُر إلى الحَىِّ مِنْ بعيدٍ ويُحَدِّثُ نفسَه عما تَنْطوى عليه الأخبيةُ المرصُوصَةُ فى وادى الجِواء، هنالكَ كانت عَبْلَةُ فى بيتٍ مِنَ البيوتِ لا يَدْرِى فيم تفكِّرُ ولا فِيمَ تتأملُ. أكانَتْ راضيةً عن زواجها مِنْ عمارةَ بن زيادٍ؟ لقد كانَ عمارةُ فتَى عَبْس وابن سَادَتِها. كانَ أكرمَ الناسِ حَسَبًا، وأعلاَهُم نَسبًا، وأجملَهم صورةً، وأسْخاهُم يدًا[٨]، حتى عَرفَهُ الناس بـ (عمارةَ الوَهّاب). أكانتْ عبلةُ راضيةً بِزَواجها منه؟ كان عنترةُ يحِسُّ عندما يتمثَّلُ صورةَ ذلك الشَّابِّ وصورةَ عبلةَ إلى جانبه أن لهيبًا يتَّقِدُ فيما بين جَنْبيه، وأنَّ الضوءَ يُظْلِمُ أمامَ عينيه. ولكَمْ خَيَّل إليه وهْمُهُ المضطربُ أنْ يَهْوِى بجواده إلى بيتِها فَيَنزعَها[٩] مِنْه ويَفرَّ بها إلى حيثُ لا يراهُما أحدٌ بعدَ ذلك، وَيقِفَ دونَها مقاتِلًا. ولكنه كانَ يَعُودُ إلى نَفْسِه لائمًا لها على ما تَخَيَّلَه فى الوهْم. فما كان لِيَجْرُؤَ على فِعْل يَجُرُّ المشقَّةَ عليها أو يُدْخِلُ الهَمَّ إلى قلبها.

فكان يَقنعُ بأنْ ينظُرَ مِنْ بعيدٍ إلى الشِّعبِ الذى يَحْوِى[١٠] خِباءَها ويَقْضِىَ الساعاتِ مُغنيًا بالشعرِ الذى يتَحركُ به خَاطِرُه مِنْ ذكرها، ووقف على رأسِ الرَّبوة مُنْشِدًا:

أُعَاتِبُ دَهْرًا لا يَلِينُ لِعَاتِب ... وأُخفِى الجَوى[١١] فى القَلبِ والدَّمعُ فَاضِحِى

وقد هانَ عِنْدى بَذلُ نَفْسِى رخيصةً ... ولو فَارقتْنى مَا بَكتْها جَوارِحِى

٣ غارة وحشية على قومه:

وما كاد يُتمُّ إنشادَه، حتى طَرقَتْ أُذُنَهُ صَيْحَةٌ عاليةٌ، خرجتْ كَأَنَّها هَزِيمُ الرَّعدِ[١٢]، انطلقَ فجأةً فى الفضاء، فنظَر حولَه، فإذا به يرى خيلًا تُقْبِلُ نَحْوَ الوادى سابحةً فوقَ الرمالِ كأنها سِرْبٌ من الطير. ومَا هى إلا لحظاتٌ بعد ذلك حتى خَرج مِنْ جوانب وادى الجِواءِ[١٣] فرسانُ عَبْسٍ وكانوا هُناك على تَرَقُّبٍ لصدِّ العدُوِّ. وغَمرَ الغزاةُ ساحةَ الوادِى، وتَفَرَّق فوارسُ عبس بينهم يُدَافعون، ولكنهم كانوا قِلة لا يكادونَ يَثْبتُون أمامَ العَدُوِّ فى مكان، فما هى إلا ساعةٌ حتى كان العدُوُّ يحاربُ فرسانَ عبسٍ عِند فم الشِّعْب ويَكادُ يُحطِّم مُقاومَتَهُم العنيفةَ.

وتحركَتْ نَفسُ عنترةَ إلى القتال مِرارًا، وهَمَّ أنْ يَهْبطَ مِنَ الرَّبوةِ، لِكَىْ يَنْصُرَ قومَه، ولكنه كانَ فى كلِّ مرةٍ يُغالبُ نفسَه ويُمَانِعُها.

وانفَرط عِقْدُ العَبْسيين بعد حينٍ، فَصاروا يتدافَعُون ويتزاحَمُونَ عندَ فَمِ الشِّعبِ فى ذُعر، وكلما اتجهُوا وِجْهةً وجدُوا العدوَّ يَسُدُّ سَبيلَهم إليها فيرتَدُّون خِفافًا وهم لا يُبْصِرُون ما دُونَهم إلا بعْدَ أَنْ يَصْطدِمُوا به، وتَفلَّتَ الأمرُ مِنْ أيديهم حتى صَارَتْ رحَى المعركة تدورُ بين حُطام البيوت المقوَّضَةِ، فكَانَ فرسانُ عبس يَرْتَدُّونَ خُطْوةً بعد خطوةٍ فيَخْبِطُون نساءَهم وأطفالَهم فى عَمَايةِ القتالِ[١٤] والصياحُ والبكاءُ مِنْ ورائِهم يَعْلُو على ضَجيج القتال! رأى عنترة ذلك كُلَّه مِنْ وراءِ العَجاجِ[١٥] الثَّائِر، وقَلْبُهُ يَثِبُ فى صَدْرِه، ولكنَّ حَنَقَهُ كان يكبَحُ غضبَه كما تكْبَحُ الشَّكِيمةُ[١٦] الفرسَ الجَمُوحَ. فكان يَئِنُّ كلما رَأى مَنْظَرَ الهزيمةِ الطاحنةِ، ويُزَمْجِرُ كالوحشِ الجريحِ، ولكنَّه حَملَ نَفْسَه على البقاء فى مَكانِه قَسْرًا.

(٨) أسْخاهم يدًا: أكرمهم.
(٩) فَيَنزعَها: المراد: يأخذها.
(١٠) يَحْوِى: يضم.
(١١) الجوى: الحزن.
(١٢) هَزِيمُ الرَّعد: صوته العنيف.
(١٣) وادى الجواء: مكان متسع يقع فى ديار عبس.
(١٤) عَمَاية القتال: المراد: شدته.
(١٥) العَجاج: التراب.
(١٦) الشكيمة: الحديدة المعترضة فى فم الفرس من اللجام، الجمع: الشكائم.

ثم خُيِّلَ إليه أنَّ المعركةَ قد بلَغَتْ إلى قريبٍ مِنْ دَارِ عبلةَ. ولاحتْ له صُورَتُها كأنَّه يراها تَحْتَ سَنابِكِ (١٧) الخيلِ، أو كأنَّ فارسًا مِنْ طَيِّئٍ قد عَدَا عليها فأخذَها أسيرَةً، كَىْ يَتخذَها أمةً له كما أخذَ شدادٌ أبوه زبيبةَ أُمَّه مِنْ قَبْلُ، فلم يَمْلِكْ نفسَه واندفع نازلًا عن الرَّبوةِ حتى بلغ مكانَ فَرَسِه الأَبْجرِ (١٨) ووَثَبَ عليه وهمزَه مُتَّجهًا نحو ميدانِ المعركةِ.

٤ شداد يستنهض عنترة ليدافع عن قومـه:

ولكنه ما كادَ يسـيرُ، حتى رَأى أباهُ شدادًا مُقبلًا يركُضُ جواده فى عُنْف نحوَه، فوقفَ فى مكانِه حتى صارَحِيالَه، وناداه شدادٌ قائلًا: أما تَرَى قَوْمَك يُصْرعُون تحت عَيْنيك؟ فركز عَنْتَرةُ رُمْحَه وهو راكبٌ وقال له شامِخًا بأنفِه:

٥ سخرية عنترة من قومـه:

أىُّ قوم لى؟ فقال شدادٌ والفـرسُ يَتراقـصُ تَحْتَـه ويُحَمْحِمُ: هَلُمَّ يا عنترة فإن العَدوَّ يَطحَنُنا. فقال عنترةُ: وما لِعَنْتَرةَ والقتالِ؟ ليْسَ لعنترةَ قـومٌ يا سـيدى شـداد. فصاح شـدَّاد: دَعْ هذا الهُراءَ (١٩)، وأَسْـرِعْ؛ فإن العـارَ يَنتظِرنا. فصاح عنترةُ فى وَحْشِيَّة: العارُ ينتظرُكم؟ أليسَ هو العارَ الذى يُجَلِّلُنى؟ أليس الذى يَنْتَظِرُكُمْ هو الرِّق الذى أرْسُفُ أنا فى أغْلالِه (٢٠)؟ اذْهَبْ أيها الشيخ، فَذُقْ ذُلَّ الأسْرِ عِنْد طيئ كما ذُقْتُهُ عندكم طُول حَياتى، فصاحَ شداد: قلت لك دَعِ الهُراءَ، وأقبلْ إلى القتالِ، إنَّ الحُرَمَ (٢١) تُوشِـكُ أَنْ تُسْتباحَ. فقهقه عنترةُ فى صَوْتٍ أَجَش، وقال: أَىُّ حُرَمٍ لِعبدٍ مثلى أيها الشيخُ؟ فهل تريدُ مِنِّى أن أَتطوَّعَ للقتالِ عَنْ سادَتى الذين لا يعرفون مكانى؟ لا شأنَ لعنترةَ بالقتال، فاذهبْ عنى!

فَصَاحَ بِهِ شدَّادٌ: لقد أصابكَ الخَبَلُ (٢٢) أيها العاقُّ. فصاح به عنترةُ: لا تُؤاخذْنِى يا مولاى، فإنى نَسِيتُ الأدبَ فى خِطابك، ولكنى عَبْدٌ، وما شأنُ العَبْدِ بالقتال؟ ثم عَادَ فقهقه فى صَوْتٍ مُخيفٍ... فقال شداد فى ضراعةٍ: أما يُخْزِيكَ أنْ ترى نسـاءَكَ تُسْبَى؟ أما يُخْزِيكَ أن تَرَى قَوْمَك صَرعَى؟! فقال عنترة مُتَحَدِّيًا: لقد تركتُ القتال منذ عَرَفْتُ أننى لا يَنْبَغـى لى أن أُسَـايِرَ الأحرارَ. ليس لى قومٌ أُقاتلُ عنهم. وليس لى إلا أنْ أحْلُبَ النِّيـاقَ وأنْ أحفظَ الأغنامَ والإبلَ مِنْ عُدْوانِ الذئاب، وهذا رُمْحِى أصْطَنِعهُ هِرَاوَةً (٢٣) فى يَدى، أَهُشُّ به على غَنَمِك يا شداد بنَ قُرادٍ. وهذا سيفى ولكنَّه فى غِمْده أضْرِبُ به الفُحُـولَ المتمرِّدةَ عندَ مَـوارِدِ المياهِ. هذا يا سيدى ما أُحِسُّ به مِنْ بَلاءِ الحياةِ، فلا يَنْبغى لمثلى أنْ يُشارِكَ السادةَ فى الدِّفاع.. إنَّ الحرَّ هو الذى يَسْنُدُ الأحرارَ، فاذْهَبْ إلى هؤلاء الذين يَحِقُّ لهم القتالُ.

اذْهبْ إلى أَصْهارك وإخوتك وأخْوالك الذين لا يَرْضَوْن لعنترة أنْ يكون حُرًّا يستطيعُ أن يُسايِرَ الأحرارَ. اذهبْ إلى (عمارة ابن زياد) الذى كُنتم تأكلون الثَّريدَ فى وَليمته. اذهب إلى بنى قُراد؛ فهؤلاء هم الأحرار الذين يحسنون القتال. أين مالكُ أخوك؟ وأين عمـرو ابنـه؟ وأين زخمـة الجـواد؟ وأين أبناؤه؟ أين هـؤلاء جميعًا؟ وأين سـواهم؟ إنهم فى غِنًى عن عَنْترة ابنِ زبيبةَ. وعاد إلى الضَّحك كأنه قد اخْتَبَل عَقْلُه!

(١٧) 📖 **سنابك:** حوافر الخيل، **المفرد:** سُنبك.
(١٨) 📖 **الأبجر:** عظيم البطن.
(١٩) 📖 **الهُراءَ:** السخف.
(٢٠) 📖 **أغلاله:** قيوده.
(٢١) **الحُرَم:** **جمع:** حرمة، وهى ما يجب حمايته.
(٢٢) 📖 **الخَبَلُ:** الجنون.
(٢٣) 📖 **هراوة:** عصا، **الجمع:** هراوات.

فَصَاحَ شدَّادٌ: هَلُمَّ مَعى، ثَكِلَتْك أمُّك[٢٤] قبلَ أن أُنَكِّلَ[٢٥] بوجْهك الأسودِ.

فصاح عنترةُ فى شبهِ جنونٍ: اذْهبْ أيها الشيخُ عنّى، فإنك تَسْخَرُ مِنْ نَفْسِك. اذْهبْ عنى فَوَحقِّ مناةَ وكلِّ آلهةِ العربِ الجَوْفاءِ[٢٦] إننى لا أعرفُ القتالَ. لن تجدَنى إلا كما أَرَدْتَ، عبدًا يَشْمَتُ فيكم كلَّما رأى الذُّلَّ يَطْوى كِبرياءَكُمْ، اذهبْ فقُلْ لقومِك: هذا مَصْرَعُ البغْيِ والكِبرياءِ، قل لهم: ما اتَّخذ قَوْمٌ بَعضَهُم عَبْدًا إلا كان بَعْضُهم فيهم عدوًّا، أنا عبدُ عَبْس ولستُ مِنْ عبس، أنظرُ إليكم وأرى طَحْنَكُمْ، وأمتِّعُ نفسى بِقهْرِكم وذُلِّكم، وماذا يَضُرُّ العبدَ عنترةَ إذا نكَّل العدوُّ بالسَّادةِ الذين يَخْدُمهم؟ أنا اليومَ عَبْدُ عبس، وسأكون غدًا عَبْدَ طيئ. وإذا رَعيْت لك إبلَك اليومَ فى عَبْس فَسأَرعَى إبلَ سَيِّدٍ آخرَ فى طيئ، هذا ما تَعلمته فيكم مِنَ الكرامةِ، وما أخذتُ عَنكُم من المروءة، فاذْهَبْ عنى لا أبًا لَك[٢٧] يا شدادُ بنَ قُرادٍ. وكان الشيخُ يسمعُ قَوْلَه وهو لا يُصَدِّق أُذُنيه، فقال والغيظُ يَخْنُقهُ: لقد هَممْتُ أيها الشّقىُّ أن آتىَ إليك فأضَعَ هذا السَّيفَ فى صَدْرك. أهذا عنترةُ الذى يُخَاطِبنى، أم هو عَبْدٌ مِنَ الزِّنْجِ لم تَقَعْ عَينى عليه قَبْل هذا؟!

فصاح عنترة: هذا هو العبدُ الذى صَنَعْتَه أنت أيها الشيخُ. تعالَ فَضَعْ سيفَك حيث شِئْتَ، فإنى لَنْ أُحَرِّك يَدِى فى الدِّفاع عن نَفْسى. أتعْجبُ مِنْ قولى وتسألُ: أهذا عنترةُ الذى يُخاطبك؟ بل أنَا الذى أسألُ: أهذا هُو شَيْخى وسَيِّدى الذى يُخاطبُنى؟ ألا تذكُر يوم تَركْتَنى أذهَبُ عنك؛ لأعُودَ إلى العبيدِ أمثالى فَأرْعَى إبلك وغَنَمك؟ أراكَ قد نَسِيتَ ذلك اليومَ ونَسِيتَنى. أَوَجَدْتَ القتالَ أحَرَّ مما يقومُ عليه فِتْيانُكم فذَكَرْتَنِى؟ أما تَدَعُنى أيها الشيخُ أحْلُبُ نِياقى وأرْعَى غَنَمى ثم أسرِقُ وأشمَت وَأتذلل؟ أما كان ينبغى لك أن تَبْعُدَ عنِّى حتَّى لا تَسْمعَ شَمَاتَتى وحِقْدى؟ أما كان أَجْملَ بِك وبِى لو كان حِقدى عليك يتنفَّسُ من وَراءِ ظَهْرِكَ كما ينبغى لعبدٍ مثلى؟

فاقترب شَدَّادٌ منه وأمسكَ بِكَتِفِه فهزَّها فى عُنْفٍ وقال له:

– إنك تُضَيِّعُ الفرصةَ فى حَدِيثٍ بَاطِلٍ. هَلُمَّ معى، لا أُمَّ لك!

فنزلَ عنترةُ عَنْ فرسه وأهْوَى على قدم شدادٍ فى الركابِ فقبَّلَهَا، ثم وقف أمامَه قائلًا:

هَأنذا أُقَبِّلُ قدمَك كما فعلْتُ مِنْ قبلُ مرة أخرى. عَلَيَّ أن أمسحَ نعليك بوَجْهى، وأن أحملَ لَك أدواتك وسِهَامَك. وعليَّ أن آتِىَ لك بالطعام والشراب، وأن أَخْدُمَ ضَيْفَك وأَقِفَ بين يديك صاغرًا. وعلىَّ أنْ أُرْهِف[٢٨] أذنى لهمَساتِ أمرِكَ فَاتحًا عَيْنِى لكلِّ إشارةٍ مِنْ يدكَ. اذْهَبْ يا سيدى، فأنا عبْدُك الذى ينتظرُ خدمَتك. فإذا وَضَعت الحربُ أَوْزَارها، وعُدْتَ إلى بيتِك، ولم يَأْخُذْك العدوُّ عبدًا، فسوف تَجِدُنى كما شِئْتَ عبدًا. سوف تَجِدُنى عند قدميك جَاثيًا[٢٩] مُطيعًا ذليلًا. وأما القتالُ فقد قُلتُ لك إنه ليس مِنْ شَأنى، فَلَسْتُ أُحسِنُ إلا الحَلْبَ والصَّر[٣٠]، ولا شَأْن لِى بالضَّرْب والكَرِّ[٣١].

وكان شدادٌ يسمعُ هذه الكلماتِ وهو يتحركُ فى غَيْظٍ، ينظرُ تارةً إلى عنترةَ وتارةً إلى الشِّعْبِ المضطربِ الذى يَدُورُ فيه القتالُ. ولما انتهى عنترةُ مِنْ قوله صاحَ شدادٌ فى عنفٍ: أهكَذَا تَتخلَّى عنى؟ أما تَرى العدوَّ وقد حطَّم بُيُوتى وأخذ نسائى؟ أما تراهُ قد بلغ فَمَ الشِّعْبِ، حيث مَنَازِلُ أبيك وأعمامِك؟ فصاح عنترة ساخرًا: مَنَازِلُ أبى وأعمامى؟

(٢٤) ثكلتك أمُّك: فقدتك.
(٢٥) أنكِّل: أعاقب.
(٢٦) الجوفاء: المراد: التافهة.
(٢٧) لا أبا لك: دعاء عليه بفقد الأب.
(٢٨) 📖 أرهف: أنصت فى اهتمام.
(٢٩) 📖 جاثيًا: جالسًا على ركبتيه. الجمع: جُثًى وجِثِىّ.
(٣٠) 📖 الصَّر: خيط يشد ضرع الناقة حتى لا يرضعها ولدها.
(٣١) الكرُّ: الهجوم، المضاد: الفرُّ.

٦ الحـريـةُ لا توهـب:

فقال شدادٌ فى بعض لين: نعم منازلُ أبيك وأعمامِك. إنك تَشْمتُ بنا، والحُرُّ لا يَعْرِفُ الشماتةَ. إنه يَشْتَرى نَفْسَه فى مِثل هذا اليوم يا عنْتَرة، فإذا أَردْت أنْ تَكُونَ حُرًّا فاعلَمْ أن الحريَّة لا تُوهب عَطَاءً، إنَّها إذا وُهِبَتْ كانت كقطعةٍ مِنَ العظام تُلقَى إلى كلب جائع ينتظرها صَاغرًا. هَلمَّ يا عنترة وأزِلْ عنا مَعرَّة هذا اليوم. فوثب عنترة على فرسه قائلًا: وماذا يَكُونُ اسمى منذ اليومِ؟ فصاح شدادٌ فى حَنَق: حَسْبُكَ أيها الأحمقُ، لا أُمَّ لك، ماذا يُغْنى الاسم عَن الرَّجل إذا كان فى نَفْسِه عَبْدًا؟

٧ عنتــرة يُقـدم على القتــال بطلًا حــرًّا:

فقال عنترة فى عناد: قُلْ لى يابن شداد ولو مرة. قُلْ ذلك يا أبى حتى أَسْمَعك تَدْعونى ابنك. بِمَ أُنادَى فى القتال إذا لمْ أكنْ عنترةَ بنَ شـداد؟ فصاح شداد وهو يهمِزُ فرسه: وَيْلَكَ[٣٢] عنترة بن شداد! إنما العبدُ مَنْ يقولُ لك مُنذ اليوم غَيْرَ هذا. فاندفع عنترةُ فى أثره حتى صَار بإزائِه، ثم هَمَز فَرسَه الأَبْجَر، فَسَبق كأنه طيرٌ سابح فى الهواء وقال متلفتًا إلى أبيه:

– الْحَقْ بى يا أبى وقَاتِلْ إلى جانِبى، فسأنادَى اليوم فى قتالى:

إنِّـــى امــرؤٌ مِـــنْ خَيْـرِ عَبْـس منْصِبًا ... شَطرى[٣٣] وأحمى سَـائِرى بالمنْصُلِ[٣٤]
وإذا الكَتِيـبَـةُ أحْجَمـــتْ وتَلاحَظَـتْ ... أُلْفِيـتُ خَـيْـرًا مِـنْ مُعِــمٍّ مُخْــوِلِ

ثم جعل يُنْشِد وهو مُقْبل على الميدان:

بَكَرَتْ تُخَوِّفنِى الحُتُـوفَ[٣٥] كأننـى ... أصْبَحْتُ عَـنْ غَـرَض الحُتُـوف بِمعْزلِ
فَأجبتُهـــا إنّ المنيَّـةَ[٣٦] مَنْهَـــلٌ ... لا بُـــدَّ أن أُسْقَى بِكَـأْسِ المنهَـلِ
فاقْنَـىْ حَيَـاءَكِ[٣٧] لا أبا لَكِ واعْلَمِى ... أنــى امـــرؤ سَأمُـوتُ إنْ لَـمْ أُقْتَلِ
إن المنيَّـــةَ لَـــوْ تُمـثَّـــلُ مُثِّلَـــتْ ... مثلِـى إذا نَـزَلُـوا بِضَنْـكِ المنزلِ
ولقـد أبيـتُ علـى الطَّوَى وأظلُّه ... حتـى أنالَ بـه كَـريمَ المَأْكَلِ

(٣٢) 📖 ويك: ويحك. المراد: عجبًا لك.
(٣٣) 📖 شطرى: نصفى.
(٣٤) 📖 المنصل: السيف. الجمع: المناصل.
(٣٥) الحتوف: المفرد: الحتف، وهو الموت.
(٣٦) المنية: الموت.
(٣٧) اقنى حياءك: الزمى الأدب.



الفصل السابع

انتصـــــــارٌ

مجمل الأحداث

١- صور من بطولات عنترة حققت النصر على المعتدين.

٢- عنترة يبحث عن عبلة.

٣ - عبلة تقع فى الأسر وشيبوب يتابعها ليحافظ عليها.

٤- عنترة ينقذ عبلة من الأسر.

تفصيل الأحداث

١ صـور من بطـولات عنترة حققت النصر على المعتديـن:

كان القتالُ لا يزالُ يَدُورُ بينَ البيوتِ، وقد حَطَّم الأعداءُ أَعْمدتَها، وقَطَّعُوا حبالَها، وخرجَ النساء سِرَاعًا يَحْمِلْنَ الأطفالَ إلى أطرافِ الشِّعْبِ يَلُذْن بالصخور، ويَصْعَدْن فى جوانبِ الوادى. وكانَ مَنْ بَقِىَ مِنَ الفرسانِ يحاولون ما اسْتطاعُوا أن يُنافِحُوا(١) بالسيوفِ والرماح، فكانَ الأعداءُ يَدوسُونهم تحت سنَابكِ الخيل!

وأقبلَ عنترةُ نحو الشِّعْب فكان أول هَمِّه أنْ يَرى بَيت مالك بن قُرادٍ، فَلَمَحهُ مِن وراءِ المَعْمعةِ خاليًا مُهدَّمًا، قد بُعْثِرَ أثَاثُه، ومُزِّقَتْ جوانبُه، ودخلَ فى صُفوفِ العدوِّ الذى كان عِند ذلك قد أوْشك أنْ يَقْضىَ عَلى كُلِّ مَنْ دُونَه، فلم يَبقَ أمامَه مِنْ مُكافِحٍ إلا قِلَّةٌ مِنْ كُهول عَبْس، يُحاولون ما استطاعُوا أنْ يَثْبُتوا فى مَواضِعَ متفرقةٍ، وقد بَدا الكَلالُ(٢) على خُيولهم، وتردَّدتْ على تحركاتهم مظاهرُ الاستعدادِ للفِرار.

وكانَ بعضُ فُرسانِ طَيِّئٍ قد أحسُّوا رِيحَ النَّصر فَهَدَءُوا عَن القتال، وأقبل بَعضُهم على سلْب البيوتِ من كلِّ ما بها من سلاحٍ ومالٍ، وطاردَ بعضُهم مَنْ لاذَ بالفِرارِ مِنْ نساءٍ وأطـفالٍ، يُريدون أنْ يأخُذوهم أسْرَى، وكان أكبرُ هَمِّهم أن يأخذوا النساءَ لِيَكُنَّ لهم إماءً، فقد كان هذا عِنْدَهم أكْبَرَ زَهْوٍ للانتصار، وصاحَ عنترةُ بصوتِه المجَلْجِل «أنا الهَجين(٣) عنترة»...

إنـى امـرؤٌ مِـنْ خـير عَبْـس مَنْصِبًا   شَطْـرِى وأَحْمِـى سَـائِرِى بالمُنْصُـلِ

ثمَّ أَهْوَى على المقاتلين مِنْ فُرْسانِ طيِّئٍ فى حَنقٍ مُنحدِرًا كأنه صَخْرةٌ تتهدَّى(٤) مِنَ الجَبلِ، فكان يضربُ العَدوَّ حينًا بسـيفِه الذى فِى يَمِينه، وَيطعنُه حينًا برُمْحه الذى فى يَسـارِه، ويَصْدِمُه بفرسه الأبْجَر الذى كان يندفِعُ تحته كأنه يُشارِكُه الحَنقَ والحماسَةَ، وتساقَطَ الطائيون واحِدًا بَعْدَ واحدٍ، وسَمِعَ الذين أقبلُوا منهم على السَّلْب صَيْحَةَ عنترةَ فَوثَبُوا إلى أفراسِـهم سِـرَاعًا، وأقبَلُوا إليه جماعاتٍ يريدون أنْ يُحِيطُوا به، فأسـرعَ عنترةُ نحو فارسٍ ضخمٍ مِنَ الذين صَرَعَهم فى قتاله فَنَزَعَ عنه دِرعَه، وشَدَّها على جِسْمه مُتَسرِبلًا(٥) بها، ثم وَثب على فرسِه، فما بلغَ الفرسانُ مكانه حتى كانَ قد ثَبتَ على ظَهْرِ الأَبْجَرِ وهَمَزه، فاندَفعَ فى صَدْرِ الصُّفوفِ المرصُوصَة التى تَتَّجه إليه مثل سَيْلٍ عنيفٍ، وكانت صَدْمَة هائلة اهتزَّلها عنترةُ وزَمْجرَ مِنْ وقْعِها. ولكنَّ الأَبْجَرَ استطاعَ أن يَنْفذَ به فى الصُّفوفِ المتلاصقةِ،

(١) 📖 ينافحوا: يضربوا.

(٢) 📖 الكلال: التعب. المضاد: الراحة.

(٣) 📖 الهجين: المولود من أبوين من أصلين مختلفين.

الجمع: الهُجْن والهجناء والهجان.

(٤) 📖 تتهدَّى: تنحدر.

(٥) متسربلًا: لابسًا.

وصَرَع فى سبيلهِ فَرَسَيْن ألقيَا صَاحِبيْهما، ومَضَيَا فى عَدْوهما أسْفَلَ الوادِى، ولكنَّ الأعداءَ عَطَفُوا أَعِنَّة(٦) الخيلِ نَحْوَ عنترة، لِيَكِرُّوا عليه مرةً أخرى. وَلَوَى عنترةُ عِنانَ الأَبْجَرِ عائِدًا إليهم، وكان صَفُّهم قد تَضَعْضَعَ فى هذه المرةِ ولم يَبْقَ كالصخرةِ المصْمَتَةِ، فأهْوَى عنترةُ على الفرسانِ يَطْعَنُ وَيَضْرِبُ ويُجَنْدِلُ(٧) منهم واحدًا بعدَ وَاحِدٍ حتى تردَّدَ مَنْ بَقِىَ منهم وآثَرُوا النجاة!!

وكان أشتاتٌ(٨) مِنْ فرسانِ عَبس قد سَمِعُوا صيحةَ عنترة، فأقبلوا نَحْوه من الثنايا(٩) التى لَاذُوا بها، ودَبَّ الأملُ فى قُلوبهم عندما رَأَوْا عنترة يَحْصد فى العدو حَصْدًا، فأقبلوا سِراعًا وعادت الجُرأةُ إلى قُلوبهم، فلم يَسْتطع العدوُّ أمامَهم ثباتًا، وَوَلَّى الأدبارَ تَارِكًا وراءَه ما كان قد جَمَعَ مِنْ أموالٍ وسَبايا.

٢ عنتــرة يبحث عن عبلــة:

ونادى عنترةُ فرسانَ عبْسٍ أن يطاردُوا العدوَّ، ولَوى عِنانَ فرسِه نحو وَادِى الجواء، يَبحَثُ عَن عبلةَ، ولكنْ أنَّى(١٠) له أنْ يجدَها فى ذلك الحطام؟ وأنَّى له أن يعرف أثرها فى ذلك الاضطرابِ الشَّامِلِ؟ لقد أوْغل(١١) النساءُ والأطفال فى شِعابِ الوادِى، وغابوا فى شُقوق الصخْر، وما كان ليستطيع أنْ يعرِفَ هل نَجَتْ عبلةُ أو أصابتْها طَعْنةٌ، وهل بَقِيَتْ فيمَن بَقِىَ، أو عَمَدَ إليها فتًى مِنْ طيِّئ فجعلهَا هَمَّه مِنَ القتالِ ونجَا بها؟

فاندفَع فى جوانبِ الوادى يُنادِى بآل قُراد، ويسألُ كُلَّ مَنْ يراه عَنْ نساءِ شدَّادٍ وإخوتِه، وما كانَ يُرِيدُ من ذلك إلا أن يُجيبَه قائل: «قد رأيتُ عَبلة»، ولكنه لَم يَجِدْ لها بعد طُولِ البحث أثرًا. لقد كانت كلُّ فتاةٍ تنظُر كيف تحتالُ فى النَّجاةِ بنفسها، وكانت كُلُّ أمٍّ تبذلُ قُصاراها لِكى تَفِرَّ بِفَلَذَاتِ كَبِدِهَا. وكان فى أَقْصى الشِّعب جُرْفٌ(١٢) مِنْ صخر إذا نَزل المطرُ انحدرتْ مياهُ السيول مِنْ فَوْقِه، فى شَلَّالٍ مُتَدفق، فلما بلغَ عنترةُ موضعَ ذلك الجُرفِ لَمَحَ جَمْعًا من النِّسوةِ يَصْرُخْنَ فى أعلاه ويُوَلْوِلْنَ، فأسرعَ نحوهُنَّ وصاح:

هل فيكُنَّ أحدٌ مِن آل شدادٍ؟!

– أنا مروة بنة شدادٍ، فصاح عنترة:

كيف أنت يا مروةُ؟ وكيف أُمُّك وإخوتُك؟ هل أصابَ أحدًا منكم شَرٌّ؟ وكان وهو يسأل سُؤالَه يريدُ أن يعرفَ أولَ ما يَعْرِفُ أينَ عَبْلة. فسمِعَ وَلْولةً عَاليةً، وصرخَتْ مروةُ قائلةً:

– لقد أَخَذُوا عبلة! وكأن طعنةً قد أصابَتْ قَلْبَ عنترةَ عند ذلك، فَزَمْجَرَ قائلًا:

لَهُم الويلُ مِنِّى!! ثم هَمَزَ الأبجرَ، فانطلَق به فوقَ جانبِ الوادى حتَّى صارَ فوق السَّهْلِ الفَسِيحِ الذى عليه الطريقُ إلى بلاد طَيِّئ. ولم يَدْرِ ماذَا هو صَانِعٌ، ولم يَقِفْ لحظةً ليفكرَ فيما ينبغى له أن يفعلَ، بل اندفَعَ فى سبيله لا يُريد إلا شيئًا واحدًا؛ أنْ يَعْثُرَ على أثرِ القومِ الذين فَرُّوا بعبلةَ. وسارَ فى هَضبةٍ صُلْبةٍ، والجواد يَعْدُو به، فيقْدَحُ(١٣) بحوافِره مِنَ الصَّخْرِ شَررًا، حتى اتصلَ بالطريقِ التى اعتادت القوافلُ أنْ تَسيرَ فيها إذا اتَّجهتْ نحو الشام، وكان لَينًا على حوافِرِ الأبجرِ فانطلق فيه، وعضَّ على شكيمتِه كأنه هُو الذى يُطارِدُ الأعداءَ.

(٦) أعنَّة: المفرد: عِنان، وهو سيرُ اللجام.
(٧) يجندل: يَصْرع.
(٨) 📖 أشتات: الذين تفرقوا المفرد: شَتٌّ.
(٩) الثنايا: المفرد: الثنية، وهى الطريق فى الجبل.
(١٠) 📖 أنَّى: كيف.
(١١) أوغل: أبْعدَ وتعمق.
(١٢) جرف: شق الوادى، الجمع: أجراف.
(١٣) يقدح: يشعل.

٣ عبلة تقع فى الأسر وشيبوب يتابعها ليحافظ عليها:

وفيما كان عنترة ناظرًا إلى الأفق لا يلتفتُ إلى جَانبِ الطريق، سَمِعَ صَرخةً عن يسارِه كصرخَةِ المستغيثِ. فشَدَّ عِنانَ فرسِه لِيُهدِّئَ مِنْ عَدْوِه، والْتفتَ نحو مَبْعث الصَّرخةِ، فرأى أمامَه امرأةً تعدُو فى السهل الرَّمْلى مُقْبِلَةً نَحوَه. وتَعجَّبَ إذ يرى امرأةً مِثْلَها وَحيدَةً فى ذلك البَرَاح المقْفِر.

وسأل نفسه ماذا عَسى أن تُريدَ منه. ولو كان ذلك رَجُلًا لما تَردَّد فى أن يَسِيرَ ويُخْلفَه وراءه، فما كان فى صَبْرِه مُتَّسعٌ لغير مُطَارَدَةِ الذين مَضَوْا بعبلة. ولكنه رآها امرأةً، ولعلها كانت مِنْ عَجائزِ عبْس، أو لعلها سَبِيَّةٌ مِنْ قبيلة تُريدُ أنْ تستنجدَ به، وما كان لعنترةَ أنْ يُصِمَّ أذُنَه عَنْ صُراخِ امرأةٍ تُناديه. وتَأمَّلَ المرأةَ وهى تُقْبِلُ نحوه فتعجَّب مِنْ سُرعةِ عَدْوِها فوقَ الرمالِ خَفيفةً كأنها فتًى من الفتيان. حتى إذا ما اقْتربتْ منه صاحَ بها فى ضجرٍ: أَبلِكِ شَرٌّ أيتُها المرأةُ؟ فسمعَ الجوابَ ضحكَةً عاليةً أثارَتْ غضبَه، وكادَ يَسُبُّها ويَمْضِى لولا أن سمعَ صوتَ أخيه شيبوب يقول له: أما تَعْرِفُنى؟ فَفتَّحَ عينَيْه فى دَهْشَةٍ، وأسرعَ نازلًا عن فرسِه، وصاحَ به: ما الذى أتَى بِكَ إلى هنا؟ وكان شَيبوب قد اقتربَ منه، وهو يَلْهَثُ[١٤] مِنْ أثَرِ الْجَرىِ ومَنْخِراه الواسعان يتحركان مع أنفاسِه، كأنهما مَنْخِرا الأبْجَر، فلم يملكْ عنترةُ إلا أن تبسَّم مِنْ منظره وقال له:

أين كنتَ فى هذا القتالِ يا شيبوب؟ فقال شيبوبٌ فى أنفاسٍ مضطربةٍ:

كنت أرقبُ القتالَ مع النساءِ مِنْ وراء ثَنِيَّة «العُقَاب» حتى رأيتُك مُقْبلًا مع شدَّاد نَحوَ الميدانِ، فاسْتبشرتُ ونَاديتُك. وَيْكَ عنترة! ألم تسمعْنى؟! قال عنترةُ فى ضَجَرٍ: ولكن ماذا أتى بكَ إلى هنا؟ قُل وأَسْرِع فليسَ فى الوقتِ فَضْلَةٌ لِهُرَائِك!

فقال شيبوبٌ: ثم رَأيتُك تَفْرى[١٥] فى العَدُوِّ فريًا، فخَرَجْتُ مِنْ وراء الثنِية، وعزمتُ على أن أَلْبَسَ دِرْعى، وأُسْرِعَ إلى جانبكَ.

ولكنّى عندما شَدَدْتُ الدِّرعَ حولَ جِسمى لمحْتُ ثلاثَةَ فُرسانٍ يُقْبلون نحو جَمْع النساءِ مِنْ ورائى. فرأيتُ كأنَّ الموتَ يُقْبِلُ علىَّ وتداريْتُ وراءَ الثنيةِ، وهناك سمعْتُ وَلْولَةَ النساء وبُكاءَ الأطفال، فكادَ قلبِى يتمزَّق. فقال عنترة فى حَنق:

ليته تَمزَّق أيها العَبْد! فقال شيبوب: إذا كُنتَ لا تَعْرفُ شيئًا عن عبلة. فصاح عنترة:

وأين عبلة؟ أتعرفُ أين هى؟ فقال شيبوب مُشيرًا إلى خلفه:

– نَعم هى هناك. ولو تَمزَّق قَلبى لما قَدرْتُ على أن أسيرَ مع الفرسان هذه المسافةَ الطويلةَ. فقال عنترة: أَسِرتَ مع الفُرسانِ؟ فقال شيبوب: نعم. ولكنْ صبرًا، فإنى لا أَقْدِرُ على أن أَقُصَّ عليك ما رأيتُ إذا كنتَ تستمرُّ على مقاطعتى. فهدأ عنترةُ بعضَ الشىءِ عندَما عرفَ أن شيبوبًا يَعْلمُ مَوْضِعَ عبلةَ، وصَبَرَ حتَّى قَصَّ أخوه عليه قِصَّته:

عندما أقبلَ الفرسانُ مِنْ وراءِ شيبوب ألقَى سلاحَه حتى لا يَفْطِنوا إليه، وأسرعَ إلى حُطَام بيتٍ قريب فأخذَ منه ثياب امرأةٍ عجوزٍ فَلبِسها، ثم سَمِع وَلْولة النساءِ وهُنَّ يَصِحْن قائلات: «لقد أَخَذُوا عبلة»! وخطَر له عند ذلك خَاطِرٌ جرىء، فَأسرعَ فى مَلابِسِ العَجُوز نحو الفرسانِ الثلاثةِ وهُمْ يَهُمُّون بالفِرارِ بعبلةَ، فوقفَ فى وجْههم صَائحًا مولولًا يقول: سيدتى. سيدتى. فأقبلَ عليه اثنان منهم وحَمَلاه وألقياه على ظَهْرِ فَرسٍ، ثم ركبوا أفراسَهم سِراعًا

(١٤) يلهث: يخرج لسانه من شدة الإعياء.
(١٥) 📖 تفرى: تطحن وتفتت.

نحوَ الفَلاةِ(١٦)، فكان أحدُ الفرسانِ يُرْدِف عبلةَ(١٧)، والآخرُ يُردِفُ شيبوبًا وهو يَحْسَبُه خادِمَتَها العجوزَ، والثالثُ يَأتى مِنْ خلفِهما ليردَّ عنهما مَنْ قد يأتى إليهما مِنْ وراء.

فما زالُوا يسيرونَ حتى كَلَّتْ أفراسهُم من السيْر، وعَزَموا على قضاءِ الليلةِ عند ماءِ «الرَّبابيَّة» ليُريحُوا الأفراسَ ويستريحوا مِنْ عناءِ المعركةِ، ثم يَسْتأنفوا(١٨) السيرَ بُكْرةً(١٩) بغنيمتِهم النفيسةِ عائدين إلى بلادِ طيِّئ.

٤ عنترة ينقذ عبلة مــن الأســر:

وسمع عنترةُ القصةَ فى اهتمامٍ ولهفةٍ، فلما انتهَى شيبوب منها قال عنترةُ:

– وهل هِىَ بعيدَةٌ من هنا؟ فقال شيبوب:

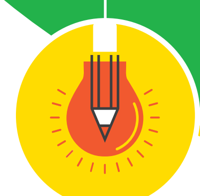
– أنسيتَ يا عنترةُ ماء الرَّبابيَّة؟ ألا تَذْكُر يوم... وكاد شيبوب يدخلُ فى قِصَّةٍ أخرى لولا أن قاطعه عنترةُ قائلًا: أهِىَ بعيدةٌ من هنا؟ فقال شيبوب: لقد ظَنُّونى عجوزًا حقًّا فرمَوا بى إلى جَانبِ الخِباءِ، وذَهبوا يَمْلئُون الحوضَ لأفراسِهم، فانطلقْتُ بعد أن رَأيتُ عبلةَ فى خِبائها. فقال عنترةُ فى رِقَّةٍ: وكيفَ هِىَ يا شيبوب؟ فقال شيبوبٌ مُتأثرًا: كانت لا تَسْمَعُ القولَ من شِدَّةِ البكاء... ومع ذلك فقد تَبسَّمَتْ لى عندما قلتُ لها هَامسًا «سَوْفَ أذْهبُ إلى عنترة وأجِىءُ به إليك». ولكنها تَعجَّبتْ منى، ولم تَدْرِ مَنْ تَكونُ هذه العجوزُ السوداءُ. لم تَعْرف المسكينةُ أننى أنا شيبوبٌ، فتركْتُها وانطلقتُ عائِدًا نحو أرْضِ الشِّربَّة، وكان ذلك قبل أَنْ يَزيدَ الظِّلُّ على قَامتِى(٢٠). فنظر عنترةُ إلى ظِلِّ أخيه، وكان قد بَلَغ طولَ قامتَيْن، وقال له: أتركبُ ورائِى يا شيبوبُ؟ فهزَّ شيبوبٌ رأسَه قائلًا: سوف أعدُو أمامك، ولن يستطيعَ الأبجرُ أنْ يُدْرِكَنى.

وعَدَا يجْرى خَفيفًا متجهًا إلى بئْر (الربابيَّة)، وسارَ عنترةُ وراءَه والأبْجَرُ يَغُوص بِحَوافِرِه ثقيلًا فى الرمالِ حين بَعُدَ عن الطريق.

وكانت صَدْمةً يَسيرَةً على عنترةَ إذ التقَى بالفُرسانِ الثلاثةِ عند ماء (الرَّبابيَّة). فما هى إلا ساعةٌ حتى قَتَل أحَدَهُم وَفرَّ اثنان منهم بعدَ أن أصَابتْهُما الجِراحُ، وركبَ عنترةُ فَرَسَهُ عائدًا بعبلة رَديفةً وراءَه. ورَكِبَ شيبوبٌ وراءهما على فَرسِ الطَّائى القتيل، وهو يُغَنِّى وَيُزغرِد كما يزغْردُ النساءُ! وبَلغُوا حِلَّةَ عبس فى صَدْرِ الليلة، وكانت القبيلةُ قد امْتزَجَ فيها فَرَحُ الانتصارِ بحُزْنِ المُصَابِ؛ إذْ فُجِعَتْ فى كثيرٍ من فرسانِها، وكانت أكبر فجيعةٍ لها أن فقدتْ عبلة بنةَ مالكٍ من بين النساءِ.

فلما عادَ عنترةُ بعبلةَ لم يَبْقَ فى الحِلَّة إلا الفَرْحَةُ الشَّاملةُ بالانتصار، وقَضَتْ عبس أيامًا فى عيدٍ متصلٍ؛ إذْ كَانت نجَاتُها إحْدَى العجائبِ التى جَرَت المقاديرُ بتَدْبيرها.

(١٦) الفلاة: الصحراء **الجمع**: الفلوات.
(١٧) 🕮 يُرْدِف عبلة: يجعلها خلفه.
(١٨) يَسْتأنفوا: يعاودوا – يبدءوا.
(١٩) 🕮 بُكْرةً: الصباح الباكر.
(٢٠) 🕮 قبل أن يزيد الظل على قامتى: أى قبل وقت الأصيل.



الفصل الثامن

علاقــةٌ قَلِقــةٌ

مجمل الأحداث

١- مظاهر الفرحة بإعلان الاعتراف بعنترة ابنًا لشداد.

٢- عنترةُ لا يَرْضَى أنْ تُعْجب عبلَةُ بشعره وبُطولاته فقط.

٣- ثورة عنترةَ على عَبْلة ثم مُحاولته اسْترضاءَها.

٤- عَبْلَة تَسْخرُ مِنْ عنترة فيثورُ عليها ويُهدِّدُها.

٥- عنترة يَنْدمُ، وعَبْلة تفرُّ منه باكيةً.

تفصيل الأحداث

١ مظاهر الفرحة بإعلان الاعتراف بعنترة ابنًا لشداد:

بَلَغتْ أنباءُ الغزوةِ (زُهَيرَبن جُذيمة) مَلِكَ عَبْسٍ وهُوَ فى طريقِهِ إلى بلاد طَيِّئ، وسمعَ أنَّ الطائيين قد خَادَعُوه، وأطْبقُوا على الحِلّة فى غَيْبته، فَحَطَّمُوها وقتلُوا مَنْ فيها، وأَسَرُوا أطفالَها ونساءَها وسَاقُوا سَرْحها[1]، حتى لم تَبْقَ فيها بَقيّةٌ إلا حُطامُ البيوتِ، بعد أنْ دُكّتْ وقُطِعَتْ حِبَالُها، وكانَ لهذا النبأ وَقْعُ الصاعقَةِ على زُهيروجَيْشِه، فقد خَرَجُوا يطلبُون تَحْطِيم طَيِّئ والانتصار عليها بعد أن أعدُّوا لتلك الغَزْوةِ عُدَّتها، فإذا هُمْ يسمعون أنَّ ذلك العدُوَّ هو الذى تَسَلَّل إلى ديارهم فاسْتطَاعَ أن يُحرزَ فيها انتصارًا يَبْقَى ذِكْرُهُ أبدَ الدَّهر، ويُلْحِقَ بعبس عارًا لا يُمْحَى، فأسرعَ عائدًا يعترضُ الطريقَ لعلَّه يَلْقَى فيها جَيْشَ طيئ فيَنْتَصِفَ منه، أو يَلْحَقَ بِمَنْ هَلَكَ مِنْ قومه حتى لا تَلْصَق به مَعرَّةُ[2] الأبد. ولكنَّه لم يَلْقَ فى الطريق جيشًا من طَيِّئ، حتى عَجِبَ وحَسِبَ أنهم قد خَادَعُوه تلك المرَّةَ أيضًا، فاتَّبعُوا طريقًا أخرى حتى لا يُلاقُوه، ولكنه عندما بَلغَ أرْضَ (الشّرَبَّة والعلَمِ السَّعْدِىّ) وجدَ الحِلَّةَ فى عيدٍ صَاخِبٍ، ورأى قَوْمَه يَسْتَقبلونه بالتَّهنئة والبُشْرَى، وكان شَدادٌ فى صَدْرِهم وإلى يمينِه ابنُه عنْترة، فقال شدادٌ لزهير عندما حَيَّاه: لئن كانَتْ لنا بَقِيَّةٌ فالفضلُ فيها لعنترةَ بن شَدَّاد.

فكان هذا اعترافًا صَريحًا بِبُنوَّة عنترة، سَمِعتْهُ عَبْسٌ من شداد لأوّل مرةٍ، وكانت ضَجَّةُ الهتافِ عِنْدَ ذلك مِنْ شبابِ القبيلة تَنِمُّ عمَّا يُضْمِرُون لعنترةَ مِنَ الإعجاب. ولم يَسَعِ السادةَ إلا أن يَمدُّوا أيديَهم إلى عنترةَ يُصافِحُونه، ويَعْترفون بما له على قَوْمِه من فَضْلٍ سوف يَبْقَى ذِكْرُه أَبدَ الآبادِ[3].

ومَضَتْ أيامٌ كانتْ فيها الأعيادُ مُتَّصلةً، وكان عنترةُ فيها واسطةَ العِقْدِ فى الأسْمَاروالوَلائم، فلم يَدَع العَبْسِيُّون وسيلةً يُعبِّرون بها عن شُكرهم لعنترة إلا تَوسَّلُوا بها. وإذا أُنشِدَتِ الأشعارُفى حَلَقاتِ النَّدِيِّ[4] كانَ شِعْرُ عنترةَ على كُلِّ لسان، وإذا أَقْبلَت الفتياتُ إلى حَلَقات الرقص كان غِناؤهنَّ باسْمِ عنترة، وما كَان أحبَّ إليه أن يَسمعَ اسمه الجديدَ (عَنترةَ بنَ شدادٍ) من أفواههنَّ إذا هُنَّ هتفْن باسمه.

(١) 📖 سرحها: إبلها وغنمها.
(٢) مَعرَّة: عار وذل.
(٣) 📖 أبد الآباد: على مَرِّ الدهور.
(٤) النَّدِىّ: مجلس القوم ومجتمعهم، المراد: النادى.

ولم يستطعْ مالكٌ ولا ابنُه عَمرٌو أنْ يتعرَّضَا له إذا تَحدَّثَ إلى عَبْلة، ولم يستطع عمارةُ بنُ زيادٍ أنْ يُظْهرَ غَضبًا إذا هو رآها تَجْلِسُ إلى جانب ابن عمها البطلِ أو تُسَايره وتُناجيه، بل لقد تحدثت المجالسُ فى هَمْسٍ قائلةً: أما آن لعمارة أن يَدَعَ الفتاةَ لِمن أحَبَّها، وهتفَ فى شعرهِ باسْمِها، وهو أَوْلَى الناس بها؟ وقالوا: إنَّ عبلةَ كادتْ لَوْلاه تُصْبح أمَةً سَبِيَّة فى أرضِ طيئ، وهَيْهات لعمارةَ أو غيرِ عمارةَ أن يستطيعَ رَدَّها.

٢ عنترة لا يَرضى أن تعجب عبلة بشعره وبطولاته فقط:

وسارَ عنترةُ فى ليلة من تلكَ الليالى مَع عبلة يُشَيِّعُها إلى بَيْتها، وجرَى الحديثُ بينهما مُتَنَقِّلًا كَفَراشِ الربيع، فكان عنترةُ أحيانًا يَصِفُ لها بَعْضَ مَغَازِيه[٥]، وأحيانًا يصفُ لها أخَاهُ شيبوبًا فى خُبثه ونَوادِرِ حِيَله، فَتَضْحَكُ عبلةُ وترمى شيبوبًا بفكاهةٍ من فُكاهاتِها، وكانَ أحيانًا يُحدِّثها عن وَحْدته وهُمُومه، وما كانَ يرَاه فى الصَّحراء فى الليالى المظلمةِ عندما باعدَ قومَه مِنْ أجْلِها، ثم أنشدَها مِنْ شعرِه وحَدَّثها بنَجْوَى قَلْبه، حتى خَطَرت له خَاطِرةٌ مِنْ ذِكْرِ حديثِ عمارةَ وخِطْبته إياها فسألها فجأة:

- أَحقًّا ما يقولُون يا عبلةُ؟ فقالت عبلةُ باسِمَة:

- وماذا يقولُون يابْنَ الْعَمِّ؟

فوقعَتْ كَلِمتُهَا على نفسِهِ وَقْعَ أَنْغَام المزَاهِر[٦] وقال لها مُداعِبًا:

- إنكِ تَسْألينى كأنك لا تَعْرفين ما أَقْصِدُ يابْنَةَ العمِّ، لقد عَهِدْتُك تُدْرِكين ما وراءَ اللفظِ قبلَ أَنْ أَنْطِقَ به.

فمالتْ برأسِها ناظرةً إليه بعينيها الباسِمتَيْن وقالت: أَحقًّا ذلك يا عنترةُ؟ فقال عنترةُ: ألا تَذْكُرين إذْ كنتِ تَسْألينى عن أَمْرٍ فأقول: «لا» فتضحكين مِنِّى، فإذا سألتك عن ضحكِك قلت: إننى ما قَصَدْتُ أن أقول لا؟ إنك تُحِسِّين بالإلهام ما لَمْ يَقعْ بَعْدُ فى سَمْعِك، فما الذى جعَلكِ تسألينَ عما يقولون كأنك لا تَعْرفينَه؟

فقالت عبلةُ: أَمَا كُنْتَ أنتَ الذى لا تُدْرِكُ إلا ما وَرَاء اللفظ؟ إنك لَتَسْمَعُ مِنْ حَديثى ما لم أَقُلْ لك، وإنَّك لتزْعُم أنك تَعْرفُ مِن مَعانى قولى ما لَم أَقْصِدْ مِنْ قولى، ألا تَذْكُرُ إذ سألتَنى بالأَمْسِ عن عمارةَ، فلما أجَبْتُكَ لَم يُعْجِبْك جَوابِى، وَأَبَيْتَ إلا أن تَزْعُمَ أننى أُرَاوِغُكَ؟ ألا إنك أَنت الذى تُراوغنى وتُكَابِرُنِى.

فقال عنترة: فقد فَهِمْتِ قَصْدِى بإلهامِك مُنْذ ذكرتُ عمارةَ، إنّه هو الذى يَتَحَدَّثُ الناسُ عنه وعنك.

فقالت عبلةُ: أُفٍّ لكَ ولعمارة! إن النَّاس لا يَزالون يتحدثون فى شَأنِه وشأنى، وليتَ شِعْرِى أىَّ أحاديثِ الناس تَقْصِدُ؟ فليس لَهم مِنْ هَمٍّ فى ليل ولا نهارٍ إلا أن يتحدَّثوا، إنهم يتحدثون إذا أَكلوا، ويتحدثون إذا شَرِبُوا، وهم أكثر حديثًا حين تَحْمى سَوْرةُ[٧] الخَمْرِ فى رُءوسِهم، وهم يتحدَّثون إذا صَحَوْا وإذا نامُوا، فأىَّ هذه الأحاديث تَقْصِدُ يا عنترة؟ فقال عنترة:

- لستُ أبالِى ما يقولون فى لَيْلهم أو فى نَهارِهم إذا كان حَديثهم لا يَعْنيك أنت.

(٥) مغازيه: غزواته وحروبه.
(٦) 📖 المزاهر: آلات موسيقية المفرد: المِزْهَر.
(٧) 📖 سَورَة: حِدَّة.

فقالت عبلةُ: وماذا يُهِمُّك مِنْ هذه الأحاديثِ، وقد طالما سَمِعْتُك تَزْعُم أنك لا تُبَالى بِثرْثرتهم؟ فقال عنترة فى نَغمةِ عتابٍ: لا تَعْبثى بى يا عبلةُ، فإنى أُحِبُّ أن أسمعَ مِنك كلمةً.

فقالت عبلةُ: أيةَ كَلمةٍ تُحِبُّ أن تسمعَ مِنى؟ قُلها لى حتى أردِدَها كمَا شِئْت.

فقال عنترة متألمًا: أنا بَيْنَ يَدَيْك أَضعَفُ مِنْ فَرْخِ اليمام، وأَخَفُّ مِنْ ريشة فى الهواء، ذَرِينى [٨] يا عبلةُ أعرف ما فى قَلْبِك.

فقالت عبلة فى دلالٍ: وأين ادِّعَاؤكَ أنَّ لك شَيْطانًا يُلْهِمُكَ؟

فقال عنترةُ فى حماسةٍ: إنَّ هذا الشيطانَ لم يَستطعْ يومًا أن يَسْبُرَ غَوْرَ قلْبك [٩]، إنه لا يَسْبُرُ إلا غَوْرى، ولا يكشفُ إلا عن قلبى. أما أنتِ فإنى أجلس معَك وأسيرُ إلى جانبك، وأعْرجُ [١٠] إلى السماءِ إلى حَيْث أحيا فى عَوالِمَ سِحْريةٍ من السعادة تُلهينى عن كُلِّ هذه الأرض، ثم أنصرفُ عنكِ وقلبِى فى حَيْرةٍ بين الأملِ الذى يَلوحُ لى والقلقِ الذى يُساورنى، وأنظرُ حينًا إلى الأرض فأراها جَناتٍ فيحاءَ، تُحِيطُ بها الأنهارُ وتَنْفَجرُ فيها العيونُ، ويبتسمُ فيها الزهرُ ويُغَنِّى الطيرُ، ثم لا ألبثُ أن أُحِسَّ الشُّجونَ تثورُ بى فلا أرى حَوْلِى إلا صَحْراء بلْقعًا [١١]، ولا أعرفُ أأنا أَطَأُ الأرضَ بقدمى أمْ فوق لُجَّة [١٢] تضطربُ بى! ومع ذلك فإنَّ شيطانى فى شُغْلٍ عَنْك بى.

فقالت عبلة فى مرحٍ: هذا هو شِعْرُكَ دائمًا يا عنترة، أعِدْ عَلَىَّ قَوْلَك، وأَطِلْ فِى الحديثِ، فإنه يَنْزِلُ على سَمْعِى كما يقع النَّدى على أَوْراقِ الشَّجر.

فقال عنترة فى أَلمٍ: أليسَ يَصِلُ إلى قلبكِ غَيْرُ حديثى؟ ألم يُعْجبك مِنِّى غَيْرُ شِعْرى؟ إنى أحدّثكِ وأَصِفُ لك حُروبِى، وأَطْرَبُ كلما سَمِعْتُك تَسْتزيدين مِنْ وَصْفِى، وأصفُ لك هُمومى فتَهُون عَلَىَّ إذا سمعتك تَعْطفين بالرحمة على هُمومى، ولكنِّى إذا حدّثتكِ بحديثِ قَلْبى، لم أَسْمَعْ منكِ إلا الإعجابَ بِقَوْلى. إنَّ كلَّ ما يُعْجبك منى إنما هو حَدِيثى وهو شِعْرى، وما أنا عندك إلا حَديثٌ وشِعْر.

فقالت عبلةُ فى شَىْء من الضِّيق: وماذا يُرْضيك أن أقول يا عنترةُ؟

فأجاب عنترة فى صوت متهَدِّج:

أنا أقنعُ منك بأيْسر [١٣] ما يقْنَعُ به العبدُ يا عبلة، لقد ضِقْتُ برقِّى، وحَطمْتُ قيودى؛ لِكى أكونَ بين الناس حُرًّا، ولكنى لا أحِبُّ إلا أن أبْقَى لكِ أنتِ عبدًا، لقد خَدَمتُك أخْلَصَ ما تكونُ الخِدْمةُ، ولم أسْتَشعِرْ منك يومًا كِبْرًا، ولَكَمْ جَثَوتُ [١٤] تحتَ قدميكِ وأنا أُقدِّم لك إناءَ اللبن لِتَشْربى منه، وكنتُ أقولُها لك من أَعماقِ قلبى: «هَنيئًا يا سيدتى!» كُنْتِ أنتِ عُلالَتى [١٥] فى حَياتى، وكُنْتُ أَطمعُ أن أكونَ عندك شيئًا، كنت أطمعُ أن أسمعَ مِنْ قلبك ولو نَبْضةً واحدةً تستجيب لخَفقانِ قلبى!

فضَحِكَتْ عبلة ضِحْكَةً مَرِحَةً بَعَثتْ رِعْدَةً فى قَلْب عنترةَ وقالت:

– ماذا أقولُ لكَ يا عنترةُ فى جَواب قولك؟ لَيتَنِى أَسْتطيعُ أن أقول شِعْرًا فأُرْضِيَكَ بمثلِ قولِك، ولكنْ هَيْهاتَ يا عنترةُ! فلن تَجِدَ منى إلا قولًا ضَئِيلًا: إنك ابنُ عَمِّى.

(٨) ذرينى: اتركينى.
(٩) يَسْبر غورقلبك: يكشف ما فى داخل قلبك.
(١٠) أعرج: أترقى.
(١١) بلقعًا: جرداء.
(١٢) لجَّة: مكان كثير الماء. الجمع: لُجج ولجاج.
(١٣) أيسر: أسهل وأقل.
(١٤) جثوت: جلست على ركبتى خضوعًا.
(١٥) علالتى: ما يُتلهَّى به.

فقال عنترة فى شَىءٍ من الحَنَق: إننى ابنُ عمِّك! إنها كلمةٌ جَوفاءُ لا تَحْمِلُ معنى. فاستمرتْ عبلةُ فى ضَحِكها وقالتْ: ألستَ يا عنترةُ عجيبًا؟! ليتنى أعرفُ السَّبيل إلى كلِمة تَرْضَاها. فأجابَ عنترة فى حرارة:

– أنتِ لا تعرفينَ السبيلَ إلى تلك الكلمةِ؛ لأنَّ قلبَكِ لا يَنْطوى عليها، وما طَلَبى ولَجَاجتى (١٦) فى أمْرٍ إذا كان ما أطْلُبُ مُسْتَعْصيًا! قُولِى لى قَوْلاً صريحًا يا عبلة، لا تتجمَّلِى فى الجَوابِ ولا تترفقى، قُولى لى حَقيقة ما تُحِسِّينه نَحْوى، قولى إنك لا تزِيدين على أنك تُعْجَبين بِشِعْرى، وتَشْعُرين بالسُّرورمن قِصَصِى وحَديثى، وقُولى إنك تَرْحمين تَذَلُّلى لك وتَعطِفينَ علَى وَلائِى! قُولِى إنك لا تنظرين إلَىّ إلا كما تنظرُ السيدة إلى عَبْد يخدمُها، قُولى لى ذلك كُلَّه ولا بَأس عليك فإنى أَعْرِفُ كيف يبدُو لك وَجْهى.

لقد طَالمَا وَقَفْتُ أمامَ الغُدْران (١٧) أنظُرإلى صُورتى فلم أرَ فيها غيرَلَونِى الأسودِ وَعيْنَىَّ الصّارمتين المتَّقدَتَيْن يَطير منهما شُعاعٌ مُخيفٌ! قُولِى لى ذلك ولا بأس عليك إذا أنتِ لم يُطْرِبْكِ مِنِّى غَيْرُحَديثى وشِعْرِى، فأين أنا مِنَ الفَتَى الجميل عمارة بن زياد؟ فقالت عبلة فى غَضَب: إنك تُذْهِلُنى بسَيْل حَديثك الحَانِق حتى لقد أُرْتِجَ عَلَىَّ القولُ (١٨) فلا أجدُ لك جوابًا.

فقال عنترة غاضبًا: ما أَحْمقنِى إذْ أُحاول أن أَنْتَزِعَ القولَ مِنْكِ قَسْرًا!

فقالت عبلةُ وقد ذهبَ عنها مرحُها: يُخَيَّلُ إلَىَّ أنَّ قولَكَ يحملُ مِنَ الجدِّ فوقَ ما كُنتُ أَحْسَب.. ماذا جَنَيْتُ يا عنترةُ حتى أَسْتحِقَّ منك هذا العِتَابَ القَارِصَ؟! لقد بَعُدْتَ فى القولِ عما بدَأتَ فيه. ألا تقولُ لى أنتَ ماذا تعنى؟

فقال عنترةُ فى حرارةٍ: إننى أَسْأَلكِ عَنْ نَفْسِكِ أنتِ. قُولِى لِىَ الحَقَّ ولا تَترفَّقِى. قُولى لى إنك فَوْق نظراتِى وفوق عِبَادتِى! فقالت عبلة فى تَبَرُّم (١٩): قَوْلٌ عجيبٌ وحقٌّ مَناةَ، ألاح لك مِنِّى ما تكرهُه؟

فقال عنترةُ بصوتٍ مُتَهدِّجٍ: أنتِ تَتجاهلين ما تعرفِينَ يا عبلةُ، تَتجاهلين ما يتحدَّثُ به الناسُ جميعًا فى نَواديهم وطى بيوتهمْ، ألمْ يخطبْك عمارةُ بن زيادٍ وأنت به راضيةٌ؟ ألَمْ يُولِمْ له أبوك وَلِيمَةً كأنه مَلِكٌ؟ أما كنتِ تَخْدُمِينَه وتسعيْنَ فى البيت تستحثين الإماءَ لِكَىْ يُبالغْنَ فى إكرامِه؟ هذه أَنْتِ منذُ الليلة تُراوِغين ولا تُريدينَ أن تَتحدَّثى بشىءٍ وتُخْفِينَ كُلَّ ذلك فى أعماقِ قلبك.

فقالت عبلةُ وَاجمةً: عَجَبًا منكَ يا عنترةُ، أهذَا هو ما تَعنِى؟

٣ ثورة عنترة على عبلة ثم محاولته استرضاءها:

فقال عنترةُ مندفعًا فى غضبه: أليس هذا شَيئًا عندَكِ؟ إنكِ تَتَّخذِينَنى هُزُؤًا ولا تُريدين أن تَكْشِفى لى عن الحقيقةِ، الويلُ لعمارةَ، والويل ثم الويلُ لَكِ.

فنظرتْ عبلةُ إليه فى دَهْشة، ثم دَمَعت عَيناها وقالتْ: إنَّك تَرْمِينى بسهامٍ فى هذه الدفعاتِ الحَانِقةِ، وتُلْقِى عَلَىَّ من الذنوبِ ما لا ذَنبَ لى فيه.

واندفعتْ تسيرُعنه مُغْضَبةً، فأسرع عنترةُ وَراءها وهو يقولُ فى ضَراعَة:

عَفْوًا يا عبلةُ، فإنَّ شَقائِى هو الذى حَرَّكَ لسانى، أأقولُ لك الويل، وإنَّ دَمعةً مِنْ عينيك أفتديها إذا استطعتُ بحياتى! وَيْلى أنا وتَعْسًا لِى! وحَاشَاك أنْ يَحُلَّ الويلُ بسَاحتَك يابنَة عمِّى.

(١٦) لجاجتى: إلحاحى.
(١٧) الغدران: المفرد: الغدير وهو ما اجتمع من الماء، والنهر الصغير.
(١٨) 📖 أُرْتِجَ علىَّ القولُ: لم أقدر عليه.
(١٩) 📖 تبرم: ضيق وضجر.

ولكنَّ عبلـةَ سـارَتْ فى طريقِهـا صَامِـتةً، ومسحَـتْ دَمْعَهـا بِطَرَفِ كُمِّها، واستمرَّ عنترةُ قائلًا: ألا تَقُولين لى إنك عَفَوْتِ عَنِّى؟ أحقًّا أنتِ غاضبةٌ مِنْ فَلْتَةِ لسانى؟ قُولِى لى يا عبلةُ ما سَأَلْتُكِ عَنه، يَنْصرِفْ كلُّ شقائى، قولى أحقًّا تَرْضَيْن عمارةَ بنَ زيادٍ؟ فقالت عبلةُ فى جفاءٍ: وما شأنِى بزيادٍ أو ابْنِ زيادٍ؟

فقال عنترة مُترفِّقًا: قُولِى كَلِمَةً يستقرُّ لها قلبى، إنهم يتحدَّثونَ وَيمْلئُون صَدْرِى شَقاءً، فهل رَضيتِ به حَقًّا؟

فقالت عبلةُ فى حَنَقٍ وعنادٍ: وما أنَا وذلك، ولَسْتُ إلا فتاةً فى بَيْتِ أبِى؟

فقال عنترةُ فى لهفةٍ: ورِضَاؤُك؟! فقالت فى شِبْهِ سخرية: رِضائى!! فقال عنترة ضَارِعًا: نعم رضاؤُك يا عبلةُ، أنا لا أَعْبَأ إلا برِضائِك أنت. فقالت عبلةُ فى تَحَدٍّ: وما رضائِى الذى تَسْأَلُ عنه؟ فهل أنا إلا فتاةٌ فى بيت أبيها؟

٤ عبلة تسخر من عنترة فيثور عليها ويهددها:

فقال عنترةُ فى وَحْشِيَّة: إِذَنْ تَذْهبين إلى بَيْتِ ابن زياد لو رَضِىَ أبوك؟ أتكُونين له زَوْجةً إذا قَبِلَ مَالِكُ بنُ قراد؟ أتذهبين إلى بَيت ابن زيادٍ كمَا تَذْهَبُ الأَمةُ معَ سَيِّدها؟!

فقالت عَبْلةُ فى كبرياءَ: كُفَّ لسانك يا عنترةُ، لَسْتُ أَمةً، وما يَنْبغِى أنْ يُقال لِى لَفْظُ الأمة، إنَّما الأمةُ غَيْرِى!!

فصاح عنترةُ فى حَنَقٍ: نعم الأَمةُ غَيرُك يا عبلةُ، إنها زَبيبةُ أُمِّى!

فقالتْ عبلةُ فى جَفاء: قُلْ ما بَدَا لك، فَلن أُجِيبَك.

فقال عنترة فى صَوْتٍ أَجشَّ: الآنَ قد بَرِحَ الخفاء[٢٠] يا عبلةُ، وانْجَلى الظَّلامُ الذِى كان يَحْجُبُ الحقيقةَ عنِّى، الآن عَرَفْتُ ما كنتُ أَبْغِى، وما كَانَ أَحْمقَنِى إذ كنتُ أَسْعَى إلى أنْ أعرفَ هذا الذى عندَك فأَرْتَدَّ إلى بيتى أَشْقَى الناس، بعد أن كُنْتُ أَمْرَح فى جهالَتِى. إذن فهو زَوْجُك ابنُ زيادٍ الذى ترْضَيْنَه ويرضاه أبوك. وأما أنا فَلَسْتُ إلا ابنَ زَبيبةَ الذى يُحدّثك، ويُزْجِى[٢١] لك وَقْتَ فراغِك. ثم ثار وقال فى وحشية:

إننى ابنُ زبيبةَ الأَمَة، ولَنْ يَذْهَبَ ذلك العَارُ عَنِّى، فَلأَذْهَبَنَّ إذن مَع سُيُول الدماءِ وعَواصِف اللَّهب. ألا فاعلمِى يا عبلةُ أنَّ ابن زيادٍ لن يَقْتَرِبَ منك، فأنت لِى أنا، أنا الذى أَحْبَبتُك ولا أستطيعُ أنْ أحيا إلا بك. أنا ابن زبيبة الذى اشْتَريْتُ نَفْسى بسيْفِى مِنْ أجلِك، نعم مِنْ أجلك، أنتِ التى لا تعرفين منى غيرَ شِعْرِى. ألا فاذكرى يا عبلةُ قَوْلى، سوف أبعثُ إليك ليلةَ زفافك برأسِ هذا الفتَى الوسيمِ ليكونَ هدية عُرْسِكِ، ولن تزالَ العربُ تتحدَّثُ بذكْرِ هديَّتى!

٥ عنترة يندم، وعَبْلة تفر منه باكية:

وكانا قد قَرُبَا من بيتِ مالك بن قرادٍ، فوقف عنترةُ يعترض سبيلَ عبلةَ وهى متجهةٌ إلى بيت أبيها مادًّا إليها يدَه كأنَّه مُستغْفِرٌ، واللفظ الحانِقُ يكَذِّبُ استغفارَه، ومضت عبلة نافرةً باكيةً إلى خبائِها، ووقف ينظرُ إليها حتى غابتْ، فاشتعلت فى صَدْره ألسـنَةٌ من النار، وضاق صدرُه، فدار على عَقِبيْه فجأةً، واتجه نحو الصحراءِ وهو يخبِطُ الأرض برُمحه، ولا يَدْرِى إلى أين يتَّجه فيها!

(٢٠) برح: زال، وبرح الخفاء: وضح الأمر.

(٢١) يُزجِى: يدفع ويسوق، ويزجى فراغك: يشغله.